٥٥٢

552

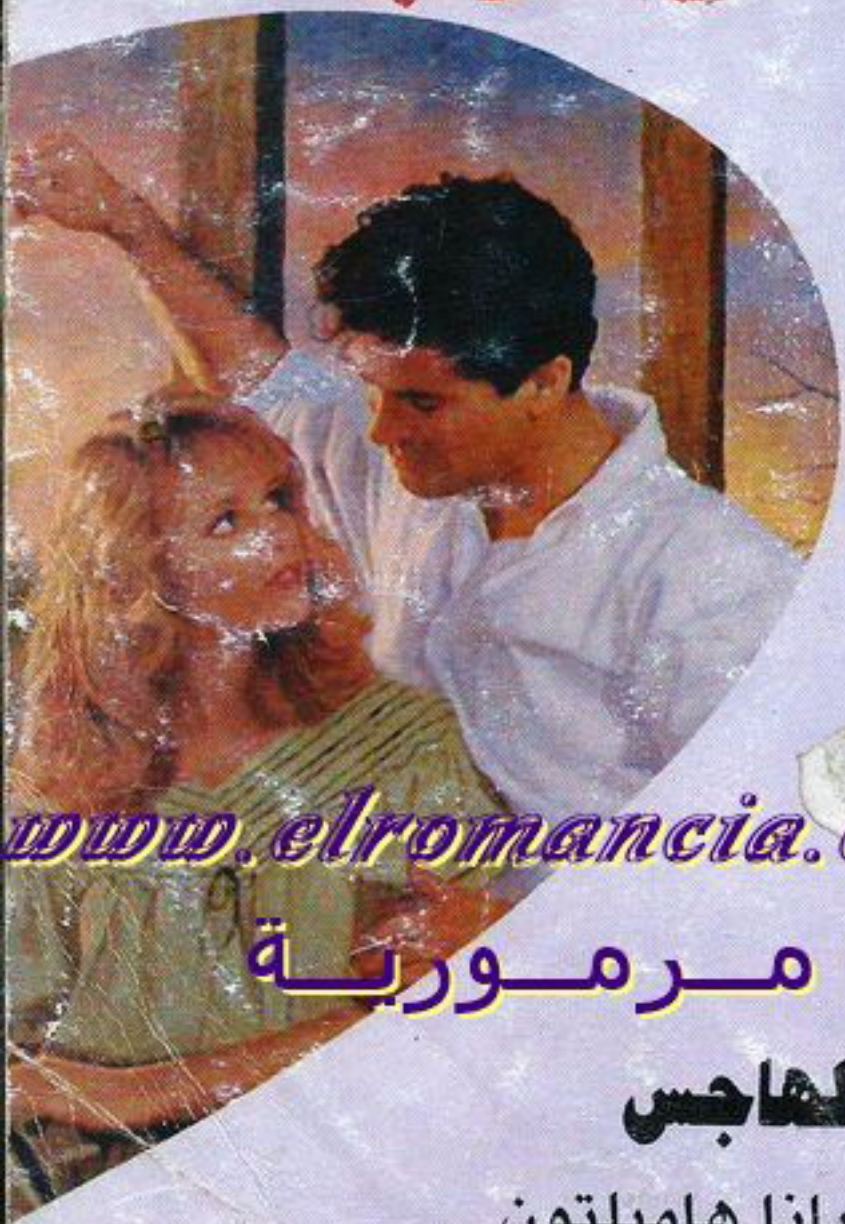

عبير

HARLEQUIN

www.elromancia.com

مرمورية

الهاجس

ديانا هاميلتون

الهاجس

ديانا هاميلتون

هل الطفل الثاني هو فرصة أخرى؟

قبل كل شيء كان زواج بيث من تشارلس جنوناً، فقد كانت مقتنعة بان لا شيء وخصوصاً هي، يمكنه أن يبعد تشارلس عن المرأة التي كان يحبها حقاً.

وقد انتهى زواج بيث من تشارلس عملياً عندما أجهضت فخسرت بذلك الطفل الذي كان هو متلهفاً اليه. وهكذا لم يعد ثمة فائدة من الادعاء بانها ما زالت ضرورية في حياته، خصوصاً وأن بامكان المرأة الاخرى ان تقدم له ما لا تستطيعه هي... ان تقدم له ابناً... إبنه؟

وكان لدى بيث أسباباً تجعلها تعتقد هذا، فهل حملها الثاني، والذي اكتشفته بعد ان تركت تشارلس، سيكون ذا اهمية بالنسبة اليه الآن؟

لبنان: ٢٠٠٠ - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال - تونس: ٢ دينار

الهاجس

كان زواج بيث من تشارلس جنوناً، فقد كانت مقتنعة بأن لا شيء وخصوصاً هي، يمكنه ان يبعد تشارلس عن المرأة التي كان يحبها حقاً.

وقد انتهى زواج بيث من تشارلس عملياً عندما أجهضت فخسرت بذلك الطفل الذي كان هو متلهفاً إليه. وهكذا لم يعد ثمة فائدة من الادعاء بأنها مازالت ضرورية في حياته، خصوصاً وان بإمكان المرأة الأخرى ان تقدم له ما لا تستطيعه هي... ان تقدم له إبناً... إبنه؟

لكن هل حملها الثاني، والذي اكتشفته بعد ان تركت تشارلس، سيكون ذا اهمية بالنسبة إليه الآن؟

ديانا هاميلتون

ديانا هاميلتون امرأة شاعرية للغاية وقد وقعت في غرام زوجها من أول نظرة، وهما مازالا يعيشان في حكاية خرافية في منزل من طراز القرن الخامس عشر حيث أنشأ أولادهما الثلاثة. والآن يشاركهم ذلك الجو الشاعري كلب وثماني قطط. ولكن بالرغم من تلك الحياة الفوضوية، غالباً ما ترى ديانا منكبة على الكتب على الدوام، إما قارئة، وإما كاتبة.

٥٥٢

khouloub Abir 552

الهاجس

ديانا هاميلتون

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

لتنبه ألا تبتاع هذه الرواية من غير غلاف لأنها قد تكون مسروقة، فيجب إبلاغ الناشرين لأن الكتاب الذي لم يبع، يجب إتلافه، فأي من الكاتبة أو الناشرين لم يتقاضوا ثمناً لهذه النسخة المسروقة.

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

SAVAGE OBSESSION

Copyright © by Diana Hamilton 1993

ISBN 0-373-11588-1

Mills & Boon first edition October 1993

عنوان الطبعة العربية الأولى عن دار م. النحاس

الهاجس بقلم ديانا هاميلتون

ترجمة: بلقيس حوماني

سلسلة قلوب عبير ٥٥٢

حقوق النشر باللغة العربية محفوظة ومحصورة في جميع البلدان لدار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات - بيروت (دار م. النحاس) بترخيص من هارلكوين انتربرايزس ليمتد (Harlequin Enterprises Limited).

جميع الحقوق محفوظة. باستثناء استعماله في أي مرجعية، يمنع استنساخ هذا الكتاب أو استعماله كلياً أو جزئياً بأي شكل وبأي جهاز من الأجهزة الالكترونية أو الميكانيكية أو الوسائل الأخرى، المعروفة الآن أو التي يتم في ما بعد اختراعها، بما في ذلك الوسائل الزيروغرافية والتصوير والتسجيل أو تخزين أي معلومات منها أو استعادتها بأي جهاز من الأجهزة، من دون الحصول على إذن من الناشر.

كل شخصيات هذا الكتاب ليس لها وجود خارج خيال الكاتبة، وليس لها أية علاقة بأي شخص قد يصدف ويتشابه اسمه مع أحد الأسماء في الكتاب ولا تستند شخصيات الكتاب، أو الأسماء التي تحملها إلى أية شخصية تعرفها، أو لا تعرفها الكاتبة، بل كل أحداث الرواية هي من نسج الخيال الصرف.

العنوان: دار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات - بيروت - لبنان شارع قردان بناية رضوان الطابق التاسع: ص.ب: ١١/٩٧١٨ - فاكس: (٠١) ٧٤٣٦٣١ - هاتف: ٧٤٣٦٣٣ - ٧٤٣٦٣٤ (٠١) - (٠٣) ٢١٦٢٩٣

عزيزي القارىء

يسرنا أن نضم الى سلسلة عبير، سلسلة جديدة بعنوان قلوب عبير. ويهمنا أن ننشر هذه السلسلة بغية ارواء شغفك للقراءة وحبك لمطالعة أدب بات الأدب الأكثر رواجاً في عالم اليوم.

ونحن، إذ ننشر اليوم هذه السلسلة الجديدة، نعدك دوماً وكسابق عهدنا، بانتظام اصداراتنا من قلوب عبير بمعدل ٥ روايات شهرياً لتكون سلواك في أوقات متعتك الخاصة.

كما نعدك ببذل الجهد المتواصل من أجل إطلاعك دائماً باللغة العربية على أحدث ما يصدر في هذه السلسلة العالمية وعن لغة الأصل: الانكليزية.

إن رفع وتيرة الاصدار والزيادة في تنويع المواضيع وألوانها إنما هما هاجسنا الدائم.

ولا تنس يا عزيزي القارىء، أن طبعة قلوب عبير هذه التي أردناها لائقة بك وبذوقك، إنما هي النسخة الأصلية.

وقوفك إلى جانبنا، إنما يعبر عن اخلاصك لنفسك وذوقك وحرصاً على وقتك الذي نوظفه لك في مجال أدبي ثقافي، مفيد وممتع.

إن وقوفك معنا يوفر لنا الدعم والمناخ اللذين لا بد منهما للمضي قدماً في رحلة العطاء الدائم والتجديد والتنويع...

الفصل الأول

ما كان لها أن تتزوجه، فقد كانت حمقاء إذ توقعت امكانية نجاح ذلك الزواج، فيا لها من غبية.

أخذت بيث تضرب بقبضتها الصغيرة حافة النافذة، وقد حجبت دموعها منظر حدائق منزلها ساوث بارك الرائعة. استدارت عائدة إلى غرفتها. ليس هناك وقت للبكاء. لا وقت للشروع في معركة للتغلب على الصدمة التي خلفت فيها هذا الألم في الأعماق، لا وقت هناك لمحاولة التغاضي عما رأت، وعما سمعت.

لذا، لربما حفلة العشاء هذه الليلة ستكون ذات نفع لها وإن بدت خلاف ذلك وهي تقوم بدور المرأة التي تزوجها تشارلس سافيج... المضيفة المثالية لزملائه في العمل، فالقوم الذين بإمكانهم أن يكونوا ذوي نفع له... سيساعدونها في التغلب على الألم.

ولكن كيف يمكنها التغاضي وهي تعلم بأن زانا هول، المرأة التي كانت حب حياة تشارلس وهاجسه الدائم، هذه المرأة هي هنا مرة أخرى؟ من الواضح أن ذلك كان بناء على دعوة منه، والأسوأ من ذلك. الأسوأ للغاية، هو اكتمال ذلك مع ابنهما البالغ من العمر سنتين، والذي هو ثمرة حبهما السيء المصير.

شعرت لحظة بالألم الحاد الذي استطاعت السيطرة عليه منذ اجهاضها منذ ثلاثة أشهر، شعرت به يهدد بتمزيق

جسدها. ولكنها تجاهلته وتغلبت عليه، قبل أن يصل إلى الحد الذي لا يحتمل والذي يتركها عاجزة لا تصلح لشيء.

أطبقت فمها بشدة وهي ترفع المشط، عابسة لارتجاف يدها، ثم أخذت تسرّح به شعرها الأسود الطويل. إنها ستتصرف كما اعتادت عندما يكون لديهما ضيوف. فقد تمكن بذلك من التغلب على المحنة القادمة دون أن تلمس كرامتها.

الكرامة، أو مظهرها على الأقل، هي كل ما لديها. ذلك أنه لم يكن لديها كبرياء أو احترام للنفس تتمسك بهما، وما كان لديها ذلك ابداً، بالنسبة لتشارلس وإلا لما وافقت على الزواج منه.

أغمضت عينيها وهي تشعر بالاحتقار من نفسها، ثم خرجت من الغرفة قاصدة المطبخ. سيبدأ ضيوفهما بالتوافد الآن في أية لحظة، وكانت الغرف جاهزة لهم. فالحديث عن العمل سيستمر أغلب العطلة الاسبوعية، وهناك زوجتان ينبغي الترحيب بهما غداً في غياب الرجال. فالنزهات في حدائق ساوث بارك هي رائعة على الدوام. كذلك تناول الشاي في الشرفة.

ذلك دون أي اشارة إلى ما كانت تعانيه أو تشعر به، وفي المطبخ الرائع، استقبلتها السيدة بيني متذمرة: «وكأن ليس لدينا ما يكفي من العمل.» نظرت إلى بيث بطرف عينيها، حتى تأتي تلك السيدة مقتحمة المطبخ لتطلب ارسال الشاي إلى المكتب، وكذلك الحليب والبسكويت للطفل. إنه نسخة طبق الأصل عنه. وهذا، في رأيها هو عار.

أخذت بيث تنظر إلى الخضار الطازجة بجمود. لقد خدمت السيدة بيني والدي تشارلس على الدوام باستثناء

فترة قصيرة منذ ثلاث سنوات. وها هي ذي تنتبه إلى التشابه بين الوالد والابن، وكان ذلك واضحاً على كل حال.

حاولت أن تسمّر نظراتها على مختلف أواني الطهي. لا فائدة من الاعلان عن تعاستها وذلها، ولكنها لم تحاول اسكات السيدة بيني وهي تتابع انتقاداتها اللاذعة: «وعندما ذهبت لاحضار الصينية، وذلك منذ عشر دقائق، وكانت ما تزال هناك، أخبرتني بأنها جاءت للمكوث هنا، قائلة أريدك أن تجهزي لي غرفة، يا سيدة بيني، وبسرعة، طبعاً. قالت ذلك بلهجة آمرة. وذلك الطفل، يا له من طفل لطيف. ليس الذنب ذنبه، أليس كذلك؟ وقد قلت لها على الفور، نعم. إنني مشغولة جداً يا آنسة هول. إنها ما زالت آنسة، أليس كذلك؟»

سارت نحو حوض الغسيل وابتدأت تغسل الخضار، وهي تتابع قائلة: «لا أدري ما هو قصد زوجك بمنحها غرفة في المنزل وهي التي لم يصدر عنها سوى الازعاج. هذا ما أعرفه.»

كانت بيث تعلم جيداً السبب الذي جعل تشارلس يعطي زانا غرفة، ولكن هذا شيء لا تستطيع احتمال التفكير فيه حالياً، وهكذا أجابت بلهجة ساخرة: «إنني واثقة من أن السيد سافيج لديه سبب منطقي يدفعه إلى ذلك.»

لكن السيدة بيني أجابت بحدة: «لا تقولي السيد سافيج. إن تشارلس الفتى سيبقى على الدوام بالنسبة إليّ، تشارلس الفتى الذي عرفت منذ جئت للعمل عند والديه وكان في العاشرة من عمره.»

ارتجفت بيث، وتمنت لو كان لديها ثقة هذه المرأة وشعورها بالانتماء إلى هذا المكان. ذات يوم، تحت سلطان

الحب وآمال الفتوة العمياء، كان لديها كل هذا. كان لديها العزيمة على أن ترغم حبيبها تشارلس على حبها... على منحها الحب الحقيقي، وكانت واثقة من أنه مع مرور الزمن، سينسى حبه العنيف الثائر السيء الحظ لزانا والذي كان هاجسه الوحيد.

يا لها من حمقاء.

اغتصبت ابتسامة وهي تقول متصنعة المرح: «إذا كان كل شيء على ما يرام، فسأذهب لانتظار مجيء الضيوف. سأذهب لأرى تشارلس.»

لكنها لم تفعل، وإن كانت في طريقها لذلك منذ سمعت صوت سيارته تقف أمام الباب. لم يعد الآن، شأنه في الماضي، يعلن عن قدومه. ذلك أن زواجهما قد تدهور منذراً بانهائه. وسادت البرودة كليهما، ظاهراً، بعد أن لم يعد هناك سوى ابتعادهما عن بعضهما البعض.

عند اقترابها من باب المكتب، رسمت ابتسامة على فمها، حيث أنها عاهدت نفسها على أن لا تدعه أبداً يرى مقدار الألم والتعاسة اللذين سببهما لها ابتعاده عنها جسدياً وعقلياً. فهي لا تريده حتى أن يتكهن بمبلغ ما تكنه له من حب عنيف خوفاً من أن يحمله ذلك إلى زيادة الابتعاد عن شواطىء زواجهما الصخرية، فقد اعتادت على الطاعة والامتثال لرغبته من انتظار وصبر ورجاء، ولا أكثر من هذا. خصوصاً الآن.

كان باب المكتب مواربياً قليلاً. وكانت يدها مرفوعة لتدفعه عندما توقفت عن ذلك وهي تسمع ذلك الصوت الأبح الذي لا يمكن أن تنساه.

لا يمكن لها أبداً أن تنسى صوت زانا. لم تفهم شيئاً في البداية، شأن الكوابيس عادة، ذلك لأن زانا كانت هجرت تشارلس منذ حوالي الثلاث سنوات تاركة إياه محطماً، يعيش في عزلة كئيبة في ساوث بارك، وهدفاً لأقاويل سكان القرية، فهل من الممكن أن تكون قد عادت إليه، إذ تقول: «كان علي أن أعود إليك، يا حبيبي بعد أن انتهى ذلك الزواج الذي لم ينجب. وأنا لا أدعي بأنني غير مسرورة... فأنا لست منافقة إلى هذا الحد. هذا إلى أن على ابننا أن يعرف والده، وأنت لن تنكر عليه ذلك. لقد منحته كل الحب الذي في العالم، ولكنه ما زال بحاجة إلى والده...»

فتحت بيث الباب قليلاً ليصدم عينيها الخضراوين العميقتين مشهد سينطبع في خيالها طوال الزمن، زانا، بجمالها المعهود، وشعرها الذهبي المائل إلى الاحمرار تحيط خصلاته بوجهها الرائع، وتشارلس يحوم حولها وقد لانت أسارير وجهه الرزينة الخشنة بشكل لم تره بيث منذ شهور. وقريباً منهما كان الطفل. كان في حوالي الثانية من عمره، يلعب على الأرض بثقالة الورق يضرب بها السجادة السميكة باستمرار، غافلاً عما يدور حوله.

كان في وجهه ملامح أسرة آل سافيج. فالشعر الأسود، العينان العميقتان بلونهما الرمادي الداكن وأهدابهما السوداء، الملامح التي ستصبح مع مرور الزمن، نسخة أخرى عن الرجل الذي كانت عيناه الآن مسمرة عليه بلهفة واضحة.

تسللت مبتعدة دون أن يراها أو يسمعها أحد منهم. واتجهت إلى الحمام لتواجه صدمة الألم التي لا تصدق وهي

تعلم أن زانا قد عادت... عادة مع الطفل الذي طالما تلهف إليه تشارلس.

بعد انهيار علاقته بزانا، تزوج تشارلس من بيث، ليس كردة فعل بالضبط، ولكن بعد عملية حسابية جامدة.

لقد كان يريد زوجة، وولد ليرثه... أو عدة أولاد في الواقع. وكانت بيث مناسبة، بعد أن أثبتت جدارتها في غياب السيدة بيني، في ادارة منزل ساوث بارك، وكذلك بقيامها بدور المضيفة عندما كان يستضيف رجال الأعمال، وذلك مكان زانا هول الشاغر.

كان عرضه الزواج عليها بمثابة انفجار قنبلة. وقد قبلت ذلك مخالفة نصيحة والديها وآلي أفضل أصدقائها. ولكنها بقيت متحكمة في مشاعرها تريد أن تبقيه جاهلاً بها.

إن رجلاً مصقولاً مثله، يملك القيادة والطموح اللذين كانا انتزعا أملاك الأسرة من وهدة الفشل والنسيان ليعود فيوقفها على قدميها بثبات، رجلاً كهذا سيعتبرها غاية في الحماقة لو أنها انهارت أمامه لتعترف له بأنها تحبه منذ كانت في سنوات المراهقة.

وضعت بيث تعاستها جانباً بعد أن وصل أول ضيوف العطلة الاسبوعية. ثم إذا بها ترى تشارلس بجانبها دون أن يبدو في عينيه الفولاذيتين أي اشارة إلى ما يعتمر في أعماقه من مشاعر بعد أن رأى ابنه لأول مرة.

لكنها أخذت تتساءل عما إذا كان ذلك قد حدث فعلاً لأول مرة. وابتسم لها من فوق رأس أول ضيفة وصلت، وكانت ابتسامة باهتة لم تبعث الدفء في تلك العينين الرماديتين الفولاذيتين، ولكنها فعلت كل شيء لتعيد طعنة الألم تلك إلى فؤادها.

ذلك الشعور البالغ نحوه، كان شيئاً عليها أن تلغيه. أدركت والعذاب يغلف روحها، أنها كانت تحاول التدريب على ذلك منذ بدا عليه بوضوح أنه لم يعد يهتم بحياتهما الزوجية.

رأته يعبس فجأة، وعيناه الغامضتان تخترقان عينيها، فقالت تخاطب الضيفة بسرعة وباشراق أكثر من اللازم: «سآخذك إلى غرفتك، يا مافيس فأنا أعلم أن تشارلس على وشك تقديم بعض المرطبات إلى دونالد و...»

قاطعها تشارلس برقة: «بل أظن أنهما يفضلان أن يكونا معاً.» وحمل حقيبتي الثياب الثمينتين مشيراً إلى الضيفين ناحية السلم: «الآخرون سيكونون هنا في أي لحظة، فهل لك أن تنتظريهم يا عزيزتي؟»

ربما يريد أن يعلن لها خبر وصول الضيفين الرئيسيين، زوجته الأولى وطفله، وذلك على انفراد، فهذا ليس من نوع الأخبار التي يحب أن ينشرها أمام ملأ من رجال الأعمال الذين يملأون منزله.

حسناً، تلك هي مشكلته وحده. وصعدت السلم بسرعة تريد أن تنفرد بنفسها في غرفتها. فهي حسب ظن تشارلس، لم تعلم بعد بوجود زانا وابنها هاري هنا. وتملكها شعور بالغ الحماقة بأن ليس عليها أن تواجه هذا الأمر إلى أن يتكلم هو عنه.

لقد كانت مواجهة هذا الأمر شيئاً فظيعاً. كانت تفكر في ذلك عندما وصلت إلى قمة السلم محاولة أن تتجاهل علمها بأن تشارلس لا بد اتصل بزانا وأخبرها بأن زواجه من بيث غارنر قد انهار، انتهى، ذهب إلى غير رجعة. فالحديث الذي

سمعته يدور بينهما في المكتب جعل ذلك في منتهى الوضوح.

أتراه تضرع إلى حبيبته السابقة طالباً عودتها؟ معترفاً لها بأنه لم يستطع نزع حبها من كيانه؟

كانت هذه الأفكار تزيد من عذابها وهي تسير في الممر الذي يبتعد عن جناح الضيوف موصلاً إلى غرفتها.

وماذا كانت ردة الفعل لدى زانا؟ لم تكن معرفة ذلك صعبة، إذ ربما أظهرت ندمها للانفصال عنه بقدر ما أظهر هو. فقد كان كبرياؤها يبعدها عنه إلى أن فات الأوان، لأنها في الوقت الذي اكتشفت فيه أنها حامل منه، كان هو قد تزوج مدبرة منزله المؤقتة.

بعد ذلك اختفت من حياته، ولم يعد ثمة مشكلة بعد أن ذهبت مع ابنها إلى حيث يقيم والداها الثريين، وهي ابنتهما الوحيدة المدللة، وذلك في جنوب فرنسا حيث بالغا في رعايتهما، هي وابنها.

لكنها عادت الآن، بقوة واندفاع. لكن كلا، فإن تشارلس ما كان ليعلم بأن لديه ابناً إلا بعد أن اتصل بها ليعلمها أن زواجه، بالنسبة إليه، قد انتهى. ذلك أنه لو كان يعلم بوجود ابنه لما منعه شيء من البحث عنه. ولا شيء الآن سيتمكن من ابعاده عنه. تماماً كما لا شيء يمكنه الآن أن يبقيه بعيداً على المرأة الوحيدة التي أحبها.

عندما وصلت إلى غرفتها كان كل كيانها يرتجف، وكأنها طفلة فقدت دميتها. لكن عليها بأي شكل كان، أن تتمالك نفسها، أن تجتاز المحنة إلى عصر يوم الأحد عندما يرحل ضيوف.

إذا بصوت تشارلس يأتي من خلفها قائلاً ببرودة: «لقد طلبت منك البقاء في الأسفل.»

لم يكن قد وضع قدمه في هذه الغرفة من حين أجهضت منذ ثلاثة أشهر، إذ بقي في غرفتهما التي كانا يتشاركانها، غرفة النوم الرئيسية، وتطفله الآن في مثل هذه الظروف، هو انتهاك لمكانها وعزلتها. والطريقة الوحيدة لمكافحة الانهيار الذي أخذت تشعر ببوادره، هو أن تحتفظ بكرامتها ورأسها مرفوعاً، محاولة مواجهة النار بالنار.

وهكذا هزت كتفيها قليلاً، متظاهرة بالبرودة: «إنني واثقة تماماً بقدرتك الكاملة على استقبال ضيوفك وتهيئة الاستقرار لهم. فقد حان وقت اغتسالي وارتداء ملابسي.»

أرغمت نفسها على الاستدارة ومواجهته، رافعة الرأس، وقد جف فمها وهي تقول: «إذا كان عليّ أن أبدو لائقة، فأقدم المآكل إلى ضيوفك وأدير دفة الحديث، وأساعد السيدة بيني في اللمسات الأخيرة للعشاء... إذ ليس بإمكانها أن تصنع مايونيز جيد مهما حاولت، ولهذا فليس لديّ وقت انتظر فيه الضيوف المتأخرين. هل تريدنا أن نفسد النظام وبالتالي عطلة نهاية الاسبوع؟»

كان هذا أطول حديث وجهته إليه منذ زمن طويل، وكان في هذا ما يدعو إلى الحذر، هذا إذا اهتم بالتفكير في ذلك. إنها ستنهار حتماً إذا هو أخبرها بأنه سيطلب الطلاق كي يتزوج من زانا، المرأة الوحيدة التي يحب. يتزوجها ويضم ابنه إليه. وهي تتمنى أن لا يحدث ذلك قبل أن تنتهي عطلة آخر الاسبوع ويغادر الضيوف المنزل.

للحظة خاطفة، خيّل إلى بيث أنها ترى شعاعاً من الغضب

في عينيه الغامضتين، سرعان ما تلاشى، أو ربما لم يكن ابداً، خطر ذلك لها وهي ترى ملامحه التهكمية المعتادة وهو يحدق إليها مباشرة.

خفضت بصرها، فنظراته آلمتها للغاية. وأشاحت بوجهها لتسير إلى خزانة ثيابها متظاهرة بالبحث عن شيء ترتديه.

فكرت بسخرية مرة، بأن أفضل ما يمكنها به التخلص من وجوده، هو أن تبدأ بتحضير ملابسها. فهو منذ شهور، لم يشأ أن ينظر إليها أو يلمسها. دون أن تعرف السبب، إلا الآن.

رفست حذاءها بشيء من التحدي، ثم أخذت تفك أزرار قميصها القطني. ولكن طريقتها هذه لم تنجح لأنه قال بلهجة جامدة: «إن زانا هول هنا.»

جمدت في مكانها، بينما ظهرها إليه، وأخذ قلبها يخفق بعنف. إنه سيخبرها بشيء لا تظن هي أن بإمكانها احتماله. وتابع هو يقول بهدوء: «مع ابنها هاري والذي يبلغ السنتين من العمر. إنهما سيمضيان هنا عدة أيام.»

فقالت متظاهرة بعدم الاهتمام: «آه، أحقاً؟»

كان ادعاؤها عدم الاكتراث هو كل ما بإمكانها القيام به.

وإذ أخذت تفكر في الماضي، شعرت بالراحة لأنه لم يسبق أن أخبرها بأنه يحبها، وإلا لو كان قال لها ذلك، لكانت كشفت هي بدورها عن حبها العميق له، ولكانت هذه العطلة الاسبوعية الآن حافلة بمزيد من المذلة والتحقير لها، هذا إذا كان هناك مجال للزيادة.

«ألا تريدين أن تسألي عن سبب وجودهما؟»

كان قد تحرك من موضعه، وشعرت به وقد أصبح قريباً منها، فارتجفت وقالت بحدة: «كلا.»

نطقت بذلك بتوتر وسرعة، فقد كانت تعلم جيداً سبب جود زانا هنا مع ابن تشارلس، فهي ليست بحاجة إلى أن يخبرها بذلك.

أخرجت من الخزانة أول ثوب وقعت عليه يدها، وما زال ظهرها إليه إذ لم تكن تستطيع احتمال رؤية النبذ النهائي في عينيه الرائعتين وهو يخبرها بأنه لم يعد يريدها زوجة له.

صدرت عنه شتيمة خافتة لا تكاد تسمع، وسمعته يقول وقد بدا في صوته التوتر لأول مرة: «لسبب ما، لا يعرفه غيرها، رفضت السيدة بيني أن تجهز غرفة لزانا وهاري الصغير.» وإذ ذكر اسم ابنه، شعرت برقة في صوته. إنه ابنه، الابن الذي كان يبغيه والذي لم تتمكن هي من منحه له. إنه الآن سيطلب منها أن تقوم بذلك. أن تهيء لهما الاستقرار والراحة. كان هذا شيئاً لا يصدق. وكانت على صواب عندما تابع يقول وفي صوته رقة غير عادية: «لا أدري إذا كنت تمانعين في...؟»

«لقد سبق وأوضحت لك إنني مشغولة جداً.» كانت مستعدة له. إنها تعلمت تلك الطريقة بالذات منذ أخذت تواجه حقيقة كراهيته المتزايدة لها: «إنك دعوتهما إلى هنا، كما يبدو، وعليك أن تجهز لهما مكانا للمبيت، ولا يهمني أين، فهذا راجع إليك.» وسارت بسرعة نحو باب الحمام، وهي ما زالت متشبثة بثوبها.

لا تدري كيف خرج صوتها بارداً جامداً بينما في أعماقها كانت تصرخ متعذبة وقلبها يخفق بشكل هستيري.

أغلقت باب الحمام خلفها بعنف، ثم أقفلته من الداخل لتستند إليه بعد ذلك وهي تلهث، ليس لأنها كانت تتوقع أن يلحق بها تشارلس إلى الحمام، بالطبع. فهو قد فقد اهتمامه بها منذ أجهضت ابنهما. وقد أصبحا يعاملان بعضهما البعض، هذه الأيام، كغريبين، ما عدا هذه الليلة التي خرق فيها ما تعوده من بعد عنها والذي كان يعمق مع الأيام، وذلك منذ ليلة الاجهاض المشؤومة تلك.

• • •

«هل أنت بخير؟»

وكان آخر ما كانت تنتظر منه، هو اظهاره النادر هذا للعطف واللين في ملامحه الصارمة. ولكنها عادت ففكرت، وهي تمر بجانبه، حاملة صينية القهوة، فكرت في أنه ربما يشعر بالأسف لأجلها. وكان آخر ما تريده منه هو الشفقة. أجابته متحدية: «إنني في أحسن حال، ولماذا لا أكون كذلك؟»

وسرعان ما ندمت على اندفاعها هذا إذ لم تكن تريد أن تعطيه ذريعة ليخبرها بالضبط عن السبب الذي يجعلها تشعر خلاف ما تدعيه. وكان العشاء بمثابة محنة لها تريد أن تنساها. إذ تألق أثناءه جمال زانا وسرعة بديهتها ما جعلها مركز الاهتمام. ولا يعلم أحد ما كان يدور في رأسي دونالد كلارك وزوجته. وكان دونالد كلارك محاسباً في شركة تشارلس منذ سنوات، تماماً أثناء علاقته العاصفة مع زانا. فقد كانت في تلك الأيام تعيش هنا في هذا المنزل حيث كانت تمثل دور المضيفة في كثير من العطل الاسبوعية كهذه الآن.

ولا شك أن دونالد وزوجته مافيس متلهفان إلى الصعود إلى غرفتهما لكي يخوضا في فضيحة عودة زانا. فهما لم ينسيا بعد هاجس حب تشارلس العنيف، والذي تملكه كلياً، لتلك المرأة التي، حتى في ذلك الحين، قد تركت خلفها سلسلة من القلوب المحطمة، غير مكترثة بعزلته الكئيبة عندما تركته في النهاية.

قال لها تشارلس بصوت بدا فيه شيء من التوتر: «ظننت أنه ربما الصداع الذي يصيبك أحياناً، فوجهك بالغ الشحوب.»

عندما أخذ الصينية منها وانتظر أن تتقدمه إلى دخول المطبخ، تمتمت تقول: «شكراً.»

كان صحيحاً أنها، منذ حادث السير ذاك الذي نتج عنه فقدانها جنينها، أخذت تعاني من حالات صداع فظيع. ولم ينتج هذا فقط من تأثير ارتجاج بالمخ الذي أصيبت به، ولكن من الحزن كذلك. ولكن هل كان عليه أن ينبهها إلى واقع أنها كانت تبدو إلى جانب جمال زانا المتألق، كانت تبدو كفأرة مصابة بفقر دم محزن؟

قال لها: «إذا شئت أن ترتاحي، يمكنني أن أعتذر عنك.» فنظرت إليه بسرعة وقد بدا الشك في عينيها الخضراوين المتألقتين. ولكن بدلاً من أن ترى في عينيه التهكم والرغبة في أن يتخلص منها وذلك بوضعها في فراشها للتأكد من ابتعادها عن الطريق، لم تر سوى العطف، فحولت نظراتها عنه بسرعة وقد امتلأت عيناها بدموع ساخنة. كانت تعلم أنها ستفقده، وذلك قبل الآن بوقت طويل. وقد حاولت تجاهل ذلك، والتعلق بالأمل، ولكن ما قام به من احضار زانا إلى هنا، وابنهما، كان يعني أن كل أمل لها قد تبدّد.

كان واقفاً قريباً منها جداً، وعندما صدرت عنها آهة مختنقة، وضع الصينية من يديه على منضدة هناك، وأمسك بوجهها بين يديه وهو ينظر إليها بعينين تنضحان بالعطف، وهو يقول لها: «إنني بالغ الأسف، يا بيث. ان آخر ما كنت أقصد، هو أن أسبب لك الألم.»

في تلك اللحظة، صدقته. فهاجس حبه لزانا كان أسطورياً، وهو ما زال حياً. وقد لا تكون هذه رغبته، ولكن هذا ما حدث. ولم يكن هو يستطيع شيئاً إزاء ذلك، كما أن وجود طفلهما جعل من المستحيل عليه مقاومتها.

وبذلت بيث جهداً خارقاً في ضبط مشاعرها. ومقاومة رغبة لا تقاوم في وضع رأسها على كتفه وبكاء حبها الضائع. لو أنه فقط يعلم مقدار تحطمها في داخلها، فلا شك أن عطفه عليها سيزداد. وهذا ما لن تستطيع احتماله. وهكذا أشاحت عنه بوجهها وكأنها تشمئز من لمسه لها.

فليعلل الأمر كما يشاء ما دام لا يعلم الحقيقة وهي أنها تحبه إلى درجة التضحية بحياتها لأجله لو اقتضى الأمر.

قالت وهي تستدير دون أن تنظر إليه: «أظنني سأذهب إلى الفراش. وسأكون شاكرة لو اعتذرت للضيوف.»

لم تستطع النوم بالطبع، حتى انها لم تحاول ذلك. أخذت ترى تحطم زواجها وكأنه أصبح شيئاً ملموساً، وقد أخذ يتناوب في نفسها، الحب والكره نحو تشارلس.

ابتدأ حبها له بشكل افتتان. وكانت في الخامسة عشرة. وكان هو المثل الأعلى لفتيات القرية وكان قد عاد حديثاً بعد تخرجه من جامعة اكسفورد. وكان يقود سيارات سريعة، ويرى بصحبة فتاة جديدة كل عطلة أسبوعية، أو

هكذا كان يبدو. كانت والدته قد ماتت منذ سنوات كثيرة في ذلك الوقت، كما أن والده قد انتابه خرف الشيخوخة. وكان اخوه جايمس موجوداً معه في ذلك الحين، ولكنه رفض أن يقوم بأي عمل في ما يختص بأعمال الأسرة، تاركاً ذلك لتشارلس.

أخذت بيرث، وهي تحدق من نافذتها إلى الشفق الارجواني، تتساءل عما عسى أن يكون حدث لجايمس. فآخر مرة سمعت عنه، وكان هذا عن طريق تشارلس، هو خبر وفاة زوجته ليزا، وذلك في مكان ما في الخارج، كان عليها أن تتصل به، أن تكتب إليه تعزيه بوفاة زوجته. ولم تكن هي قد تعرفت إلى ليزا إذ أنها وجايمس لم يحضرا عرسهما، هي وتشارلس، وذلك منذ سنتين. فقد كان هناك جفاء بين الشقيقين. وهذا كل ما كانت تعرفه، إذ أن تشارلس كان يرفض دوماً التحدث عن شقيقه، وفي الوقت الذي لامت فيه نفسها، كانت تعاني من اجهاض طفلها... ومع ذلك كان عليها أن تحاول تعزيته بشكل ما...

تنهدت. لم تعرف ما الذي جاء الآن بجايمس إلى ذهنها، ما عدا تذكرها الماضي، حين ابتدأ غرامها بتشارلس سافيج. وكانت هناك حادثة ما زالت تتذكرها واضحة، في ذهنها.

لا بد أن ذلك كانت منذ حوالي الخمس سنوات. وكان هي وصديقة طفولتها، أليسون، قد ابتدأتا لتوهما، عملاً خاصاً بهما، ولكنهما تفرغتا للذهاب إلى الحفلة السنوية التي تقام في قاعة القرية. كان تشارلس وجايمس هناك، كما كانت العادة، وكانت بيث ما زالت غارقة في غرام تشارلس سافيج، بعكس صديقتها، ولكنها لم تكن تفضي بذلك إلى أحد، بالطبع.

حتى ولا إلى صديقتها. فقد بقي هذا سراً بينها وبين نفسها، ما عدا جايمس والذي يبدو أنه تكهن بذلك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها زانا. فقد لفتت انظار الحضور في قاعة القرية مع تشارلس، وقد بدت كالزنبقة بين الأقحوان، وكان جايمس خلفهما، وكانت ملامحه عابسة. فيما بعد، أخذها إلى حيث تناولا فنجان قهوة حيث قال لها: «لن يكون لك حظ أبداً مع تشارلس. فهو لا تجذبه سوى الأنواع النادرة. وهذه المرة اصطادت شبكته زانا هول التي لا مثيل لها. وهكذا يا سنونوتي الصغيرة، لن تحصلي أنت حتى على نظرة منه.»

لقد جرحت كرامتها، في ذلك الحين، لاكتشافه حبها، حتى انها لم تفه بكلمة. هذا بالاضافة إلى أنها لاحظت من الطريقة التي ينظر بها إلى شقيقه وهو ينظر إلى تلك المرأة الجديدة في حياته، لاحظت أنه ربما كان يكره نجاح شقيقه السريع مع النساء، وتساءلت إن كان يمكن أن يكون هذا هو سبب الجفاء بين الشقيقين. على كل حال، فقد تزوج جايمس بعد ذلك بفترة قصيرة وكان في ذلك الحين يعمل في الخارج بصفته مهندساً مدنياً، وحسب ما ادركت، فهو لم يحضر ليزا يوماً إلى منزل الأسرة ساوث بارك.

تساءلت عما إذا كان قد دهش عندما علم أن شقيقه قد تزوج من بيث غارنر الفتاة المغمورة، وأدركت أنه لن يدهش أبداً عندما يعلم كيف تحطم الزواج هذا.

• • •

استيقظت شاعرة بالكدر. فقد كانت نامت على حافة

النافذة، ولكنها ما لبثت أن سارت إلى فراشها متعثرة تتلمس طريقها إلى أن وصلت إلى مفتاح النور فتبدد الظلام.

يا ليت بإمكانها أن تبدد الظلام الذي يغمر نفسها. ونظرت إلى فراشها الموحش، وأدركت أنها لا يمكن أن تنام إلا بعد أن تجد حلاً لمشاكلها.

كانت تعلم انه ليس بإمكانها أن تجتاز هذه الليلة، وبقية العطلة الاسبوعية، دون أن تناقش أمرها مع تشارلس.

كان في ذهابها إلى الغرفة التي كانت طردت منها بعد مرضها، كان ذلك يتطلب شجاعة بالغة. ولكن عليها القيام بذلك.

فقد كان أخذها إلى غرفته وهي الرئيسية في المنزل عادة، وذلك عندما جاءت عروساً إلى هنا، وفيها أمضت لياليها السعيدة والتي كان فيها يراودها الأمل في أنه، يوماً ما، سواء عاجلاً أم آجلاً، سيحبها كما تحبه.

لكنها عندما عادت من المستشفى، وجدت أن حاجياتها قد نقلت إلى الغرفة التي تقيم فيها الآن. وقد أخبرها، حينذاك، أنه يرى من الأفضل أن يتباعدا مؤقتاً إلى أن تشفى تماماً. لقد كان في ذلك بالغ الرقة، كعادته على الدوام. فهو دوماً بالغ المراعاة لأحاسيس الآخرين، حتى بعد حصول ذلك الحادث واجهاضها، عندما ماتت مشاعره نحوها بموت طفلهما، حتى بعد ذلك استمر في معاملتها بكل تهذيب واحترام.

وهذا ما جعل قسوته في احضار زانا وطفلهما إلى هنا، أمراً مدمراً للغاية.

لكنه لم يكن رجلاً قاسياً. وإنما هو رجل واثق من نفسه،

لديه بعض القسوة في معاملاته التجارية، غامض أحياناً، وأحياناً بالغ العناد. كان مجموعة من كل هذه الصفات. ولكنه لم يكن يتعمد القسوة على الاطلاق.

اعتماداً على معرفتها تلك به، شدت على خصرها حزام معطفها المنزلي، ثم غادرت غرفتها. إنها لا تريد أن تتخذ موقف المتفرج بينما حياتها وزواجها في طريق الانهيار، وذلك دون أن تقوم بشيء في هذا السبيل.

اما أن تشارلس سيختار البقاء معها، بينما هو لم يحبها ابدا، خصوصاً منذ ذلك الحادث الذي سبب لها الاجهاض، وأخبروها بأنها قد لا تحمل بعد ذلك، أما أن يختار هذا، في الوقت الذي بإمكانه أن يحصل على المرأة التي امتلكت يوماً ما حياته، وعلى طفله منها، فيا لحماقة ما ترجوه ولكنها كانت متفائلة، وإلا لما قبلت بالزواج منه.

لكن حتى تفاؤلها هذا أصيب بالخيبة عندما وصلت إلى الممر الذي ينحرف إلى حيث غرفة تشارلس، فوجدت غرف الضيوف كلها مشغولة. فأين يمكن لزانا أن تنام إذن، إذا لم يكن في غرفته؟

لكن أن تسير إلى تلك الغرفة لتجدهما فيها معاً، فهذا شيء لا يمكنها مواجهته. وفارقتها قوة العزيمة التي كانت جاءت بها إلى هذا الحد، تاركة إياها ترتجف شاعرة بوهن دفعها إلى الاستناد إلى الجدار، وقد أخذت خفقات قلبها ترتفع بشكل مفزع.

لكن العثور عليهما معاً سيحسم الأمر نهائياً. إذ لن يكون بإمكانها الصبر إلى نهاية العطلة الاسبوعية دون أن تعلم ما يحدث، لقد تغلبت الآن على الصدمة وعليها أن تعلم.

اندفعت تسير في الممر، وإذا بها تشهق بألم وهي ترى باب غرفة الأطفال نصف مفتوح.

لقد وضع تشارلس وزانا طفلهما في الغرفة التي كانت هي أنشأتها بكل حب وإعزاز لأجل طفلها. ولم تعرف كم عليها أن تتحمل أكثر من ذلك. لكن دافعاً تجهله جعلها تتقدم إلى الباب كمن يسير في نومه.

من خلال الفجوة، رأتهم. الطفل نائماً بينما والداه واقفان ينظران إليه. تشارلس أشعث الشعر، مرتدياً معطف حمام، وذراعه حول كتفي زانا وكان يقول لها برقة بالغة: «لا تقلقي من تلك الناحية. فكل شيء سيكون على ما يرام. ليس هناك رجل لا يرحب بهذا الطفل في أسرته. وأنا لست مستثنى من ذلك.»

الفصل الثاني

«ما الذي حدث إذن؟» أرادت أليسون ان تعلم، وكان وجهها المستدير جاداً للغاية، فالتفتت بيث اليها من حيث كانت تقف عند النافذة تنظر أسفل إلى حيث الشوارع مقفرة بعد ظهر يوم الأحد، التفتت إليها قائلة: «لم يحدث شيء، انني اشعر برغبة للعودة إلى العمل، كثيرات من النساء المتزوجات يشعرن بذلك.» كانت هذه قصتها التي تحتفظ بها لنفسها فقط وسواء كانت أليسون افضل صديقاتها أم لا، فليس بامكانها ان تفضي اليها بمشاكلها الخاصة. لأنها ستجيبها حتماً. «لقد كنت قلت لك ان هذا سيحدث.»

فقالت الفتاة ببطء: «ما دمت تقولين ذلك.» ثم قفزت واقفة وقد أشرق وجهها بالابتسام، وهي تقول: «ساعد شراباً أولاً، أتريدين قهوة أم شاياً؟»

«آه... قهوة من فضلك.» وتمالكت نفسها، فقد كانت افكارها شاردة، وهي تتساءل كيف بإمكانها ان تعيش حياتها من دون تشارلس.

اخذت تنظر إلى أليسون وهي تسير نحو مطبخ هذه الشقة الصغيرة القائمة فوق مكتب الوكالة، ثم تنفست بعمق، لقد أحسنت العمل حتى الآن، فقد ابتدأت كفاح العودة إلى احترام الذات، ولها ان تشعر بالفخر لذلك.

ما ان غادر آخر الضيوف المنزل عصر هذا اليوم، حتى كانت قد قررت القدوم لرؤية أليسون، لم تكن قادت سيارة

منذ الحادث، كان تشارلس هو الذي يقود السيارة في ذلك اليوم الهائل، عندما انعطف نحوه فتى طائش بسيارته فتسبب بالحادث الذي كلفها جنينها.

لم يكن بإمكان تشارلس تجنب الحادث، أما هو فلم يخرج من ذلك سوى ببعض الجروح السطحية والرضوض هذا في الوقت الذي رقدت هي فيه في المستشفى تعاني من ارتجاج عنيف في المخ هذا إلى الإجهاض الخطر، وكذلك كسور في الأضلاع.

وهكذا كان قيادتها للسيارة الآن هي الخطوة الإيجابية الثانية على طريق استعادتها احترامها لذاتها.

اما الخطوة الأولى فكانت عندما التفت تشارلس اليها، بعد ان ودعا آخر ضيف عندهما، وقال بلهجة هادئة إنما حازمة لا تحتمل المراجعة: «تعالي إلى المكتب يا بيث، ان لدينا أنا وزانا ما نريد ان نحدثك عنه.» واستدار ليدخل إلى المنزل وملامحه لا تعبر عن شيء.

لكنها هذه المرة كانت تناقش، وتدافع عن كرامتها، وهكذا رفعت رأسها قائلة له باتزان: «آسفة، فان لديّ موعداً، فمهما كان عليك ان تخبرني به، يمكنه ان ينتظر.» كانت تريده ان ينتظر إلى ان تحدد الأسابيع القليلة القادمة في حياتها، وذلك لكي تواجه زوجها بعمل منجز، لقد كانت تعلم تماماً ما يريد، هو وزانا، ان يخبراها به، وهي بحاجة إلى أن تتكلم أولاً، فهناك رابحون وخاسرون في كل لعبة، ولكنها صممت على ان تتأكد من انها لن تأتي في هذا الوضع الكريه، في الدرجة الثانية.

ابتعدت عنه متجاهلة ما بدا على ملامحه من غضب

مفاجيء، ثم اتجهت إلى الكاراج وهي تقاوم جاهدة، مشاعرها التي كانت تدفعها إلى الانهيار امام تشارلس متوسلة إليه ان لا يتركها.

أرغمت نفسها على مواصلة السير، شاعرة بعينيه مسمرتين على ظهرها، ولكن رأسها بقي عالياً وهي تحدث نفسها بأن زانا، رغم ما فيها من عيوب، هي والدة جيدة، كما لاحظت من معاملتها للطفل خلال اليومين الماضيين اللذين أمضتهما هنا.

كلما كان الألم عميقاً في نفسها، زاد احتمال استعادتها لكرامتها التي تخلّت عنها عندما وافقت على ان تكون زوجته، طمأنت نفسها إلى هذا، متمالكة اعصابها وهدءها وهي تفتح باب السيارة الميترو التي كان اهداها اليها بعد الزواج، السيارة التي لم تستعملها منذ الحادث.

قالت لها أليسون: «اتقولين انك ستعودين إلى مشاركتي العمل؟» وكانت قد عادت بفنجانين من القهوة تناولت بيث واحداً منهما وهي تهز رأسها قائلة: «ليس بالضرورة.» ذلك ان شركة هيلبلاين التي كانتا أسستاها معاً، لا تبعد اكثر من عشرة أميال عن منزل تشارلس، وهي لا تريد ان تكون قريبة منه إلى هذا الحد.

ذلك أن عملها في هذه النواحي لن يمكنها من تجنب مواجهة زانا وتشارلس وابنهما من وقت لآخر، هذا إلى ان إقامة والديها في القرية، سيجعلهما يتوقعان منها ان تزورهما بانتظام، مما يعني مرورها في كل مرة بجانب بوابات أراضي ساوث بارك.

«حسناً، لا استطيع ان افهم كيف يسمح سيد الإقطاعية بأن

تمسح زوجته الأرض وتنظف المكاتب وتطهي الطعام لحفلات العشاء الخاصة وما أشبه...

فقاطعتها بيث: «هل ثمة عمل يتعلق بالسكرتارية؟ فأنا مؤهلة في هذا العمل.» كانت ترجو ان تجد عملاً بعيداً عن هذه المنطقة حسب الامكان حتى ولو كان العمل مؤقتاً أو لجزء من النهار، وذلك إلى ان تجد عملاً دائماً.

قالت أليسون: «آسفة، ليس هناك سوى عمل واحد من هذا النوع وهو ليس مناسباً.»

فقالت بيث: «انه أمر مؤسف حقاً.» وحاولت إخفاء خيبة أملها. كان عليها أن تجول بعيداً بحثاً عن وظيفة دائمة، ولكن هذا ليس سهلاً، بإمكانها طبعاً ان تستعمل السيارة، مادامت هدية لها، ولكنها لن تمس فلساً واحداً من المبلغ الذي كان وضعه تشارلس في حسابها الخاص.

سألت أليسون: «ما هو غير المناسب في ذلك العمل الذي تكلمت عنه؟»

«انه في فرنسا، كاتب انكليزي يعيش في منطقة بولوني... انتقل إلى هناك منذ سنوات، ويبدو انه اشترى منزلاً ريفياً وهو يقوم بتجديده. وقد هربت سكرتيرته مع رجل ألماني وتركته وحيداً في بلد غريب، وهو الآن يبحث عن سيدة تعمل معه بصورة مؤقتة إلى ان يجد سكرتيرة دائمة، على ان تكون متجاوزة الخمسين من عمرها.» وفتحت السجل امامها ثم تابعت تقول: «بيتي ميهو.» وانت تتذكرينها طبعاً، مهتمة جداً بالأمر. فإذا انتهى تعاقدها الحالي وكان هو لم يجد من تناسبه بعد، فستتقدم إليه للعمل.»

قالت بيث: «كان بإمكان بيتي دوماً ان تنال مطلبها.»

قالت ذلك وهي تتذكر تلك الشقراء الجميلة، كانت إحدى أوائل السكرتيرات اللواتي عملت معهما، هي وأليسون.

قالت: «لا أريد ان أخسر هذا العمل. سأذهب ولا تظني انني فقدت مهاراتي، فقد كنت أقوم بقسم كبير من العمل لتشارلس، فأنا مازلت كما كنت، صدقيني.»

«آه، نعم، انني اصدقك، ولكن ألا يمانع تشارلس بغياب زوجته؟ ولا تظني أنه سيشتري طائرة مروحية ليحملك بها إلى البيت عن الساعة الخامسة مساء كل يوم.» وضحكت ثم تابعت تقول: «ان جزءاً من المشكلة هو ان هذا العميل يحب ان يعمل احياناً في منتصف الليل. والمعروف عنه انه كان يوقظ سكرتيرته في الساعات الأولى من الصباح لكي يملي عليها ما يريد.»

ارتجفت بيث وقالت لها وهي تتجنب النظر اليها: «هذه ليست مشكلة، فتشارلس عليه ان يمضي جزءاً أكبر من وقته بعيداً عن البيت، هو أيضاً.»

كان هذا صحيحاً حيث انه اخذ يتغيب عن البيت أغلب الأحيان وذلك منذ ذلك الحادث، وتابعت تقول: «وهو لن يمانع أبداً إذا انا غبت عن البيت عدة أسابيع.»

كان هذا صحيحاً أيضاً، فهو وزانا سيكونان في منتهى السعادة إذا هي غابت عن المنزل، فهما لا يريدانها أن تبقى في المنزل ليثور ثائرها إذا هما أوضحا لها ما سيكون، كما انها هي أيضاً لا تريد ذلك، فهي ستنسحب بكرامتها، وهذا على كل حال، كل ما بإمكانها عمله في هذا الوضع.

وقفت برشاقة يساعدها في ذلك رباطة جأشها الطبيعية، بإمكان أليسون ان تفهم ما تريد من وضعها هذا، ويوماً ما

ستخبرها بيث عن كل ما وراء هذا الأمر. ولكن ليس الآن. فهي لم تكن من القوة بحيث تواجه العطف، وقول صديقتها (لقد سبق وقلت لك هذا.) وكانت شاكرة للحظ حيث ان والديها كانا مسافرين في جولة حول العالم، كما كانا وعدا نفسيهما، عند تقاعد والدها.

قالت لها: «اتصلي بي غداً إذن، عندما تنهي كل الإجراءات.»

فقالت أليسون: «سأفعل افضل من ذلك اذا انت وعدتني بأن تشارلس زوجك لن يأتي ويضربني لأنني أبعدت عنه زوجته.»

«هذا لن يكون أبداً.» قالت بيث ذلك وقلبها يتمزق ألماً إذ كانت تدرك أن هذه هي الحقيقة. إذ لا شك ان تشارلس سيقدم إلى أليسون هدية ثمينة إذا هي خلصته من زوجة لم يعد يريدها، زوجة لم يقل يوماً انه يحبها.

قالت أليسون وهي تمد يدها إلى الهاتف: «ما دمت تقولين ذلك.» وأدارت رقماً تحدثت مع صاحبه فترة ثم أعادت السماعة وهي تقول: «انه مسرور للغاية، إذ ان العمل مكدس إلى السقف.» وكتبت بسرعة شيئاً على بطاقة ناولتها إياها وهي تقول: «ها هنا عنوانه ورقم هاتفه، فإذا اضعت الطريق يمكنك ان تتصلي به هاتفياً فيأتي لأخذك، هل ستذهبين بالطائرة أم بالمركب؟»

«سأذهب بالسيارة على المركب.»

نهضت واقفة من الأفضل لها ان تذهب الآن، إذا كانت تريد ان يكون قرارها مستقلاً، هذا رغم ان قلبها كان يخفق كالطبل وهي تتحول بالسيارة ناحية بوابة المنزل، وقد

أطبقت فمها بعزيمة بالغة، كما ان البرودة كانت تبدو في عينيها الخضراوين.

كان تشارلس يريد وريثاً، أسرة تستمع بنتيجة كفاحه، ولهذا لم يكن من المدهش ان يبتعد عنها، بعد ان فقدت جنينها وقال التشخيص الطبي انها لا يمكن ان تنجب مرة أخرى، أما ما ادهشها، فهو غباؤها على الموافقة على من الزواج منه. ولكن الحب كان قد اعماها، وكانت من حداثة السن والسذاجة بحيث ظنت انها ستجعله يحبها.

لكنها التمست لنفسها العذر، وهي توقف السيارة في الكاراج، بأنها لم تكن تعلم أن زانا ستعود حاملة معها ابنها منه، وكيف كان بإمكانها ان تعلم ذلك؟ فلو كان بإمكانها النظر إلى المستقبل لهربت أميالاً بعيدة عنه، لأنها وان كانت مستعدة للكفاح في سبيل الحصول على حب تشارلس، إلا أنها ما كانت لتطيق مجرد تخيّل وجود زانا قريبة منه.

دخلت إلى الردهة، صاعدة إلى غرفتها، رافعة الرأس، بدا لها المنزل خالياً بأجمعه، وبالغ السكون، وبما مازال هاري الطفل في قيلولته، بينما تشارلس وزانا يغتنمان فرصة ذلك، وحاولت ان تخبر نفسها بأن هذا لا يهمها، ولكنها كانت تعلم أنها تغالط نفسها وكان ألمها اكثر مما تطيق.

لكن عليها ان تتمالك نفسها، ان تتظاهر بأنها راحلة تبعاً لإرادتها الحرة، ودخلت غرفتها حيث ابتدأت تحزم أمتعتها، مرغمة نفسها على الاحتفاظ بهدوئها، لأنها إذا أطلقت نفسها على سجيتها لحظة واحدة، فهي ستنهار حتماً، وعندما ستصبح جاهزة للرحيل، ستبحث عن تشارلس وتقول كلمتها ثم تمضي في طريقها، وهذا سيكون كل شيء،

ولكن الأمر لم يحدث بهذا الشكل، لأن تشارلس دخل إلى الغرفة فجأة ما جعلها تقفز مجفلة، ثم تستدير على عقبيها وقد توهج وجهها.

قال وقد توترت ملامحه: «أمازلت لا تستطيعين توفير عدة دقائق لنا بعد؟»

ارتجفت بيث فجأة وشملتها موجة باردة، وتجاهلت لهجة التهكم في صوته وهي ترى عينيه تضيقان وهما تقعان على حقيبة الملابس المفتوحة، فقالت بسرعة: «لا يهمني ان اسمع ما عسى ان تقولاه أنت وزانا، لي. فهذا لا يمكن ان يكون ذا أهمية.»

أدارت له ظهرها لا تريده أن يرى التعاسة على وجهها.

ان عليها ان تبتعد عنه قبل ان يطردها بنفسه من حياته، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنها بها إنقاذ كرامتها واستعادة احترامها لنفسها. انها لن تنهار ولن تبكي، ليس امامه على كل حال، خصوصاً وحبه الوحيد قريب منه، مع الإبن الذي أنجباه معاً.

سمعت تنفسه الغاضب وهو يمسك فجأة بكتفيها ثم يديرها لتواجهه وهو يقول بخشونة: «ما الذي دخل في عقلك؟»

كان بإمكانها ان تخبره، ولكنها لم تشأ ان تسمع منه حديثه عن حبه لزانا ولولده، وحاجته اليهما، ان بإمكانها احتمال أي شيء ما عدا هذا، وقالت له: «دعني من فضلك، إذا توقفت عن معاملتي بهذه الخشونة سأخبرك بما دخل في عقلي.»

ارخى يديه إلى جانبيه وهو يسمع لهجتها اللاذعة، وقالت بتوتر قبل ان تفارقها شجاعتها: «ليس ثمة حاجة لأن

اخبرك إلى أي حد بلغ تحطم زواجنا في الشهور الأخيرة الماضية.» لم تعين تاريخاً لذلك، ذلك انها لم تستطع ان تحتمل تذكيره، أو تذكير نفسها، بالمأساة التي أنتجت عدم اهتمامه بها، وتابعت تقول: «اظن من الأفضل ان تقيم دعوى للإنفصال.»

ثم ابتعدت عنه، حريصة على أن تكون حركاتها هادئة واثقة، ثم تناولت بعض الأشياء من على منضدة الزينة ثم اضافتها إلى محتويات حقيبتها، كان قلبها يخفق بألم، ولكنه لا يمكن ان يدرك ذلك، ودون ان تراه، كانت تشعر تماماً بنظراته المتوترة تلك والتي تصدر عن عينين ملتهبتين، وهي تراقبها: «هل هذا ما تريدينه؟» كان في صوته الأجش وهو يقول ذلك ما كاد يجعلها تظنه، لولا معرفتها به، يجعلها تظنه ألماً، ولكنها ذكّرت نفسها متهكمة بأنها تعرفه جيداً، فهو قد لا يكون يحبها كما انه بالتأكيد غير مصمم على الاخلاص لها، ولكنه ليس من النوع الأناني الذي لا يهتم بالآخرين. وربما كان مهتماً باستقرار مستقبلها.

أومأت بيث برأسها دون ان تستطيع النطق، فقد كانت هذه لحظة الوداع، الوداع للرجل الذي أحبته على الدوام، لمستقبلهما معاً لو ان الأمور كانت حدثت بشكل مختلف، وازدردت غصة في حلقها وهي تنحني لتقفل الحقيبة.

عند ذلك استطاعت ان تقول: «نعم، لقد حصلت على وظيفة سأذهب إليها، ولهذا ليس بك حاجة للقلق عليّ، واظن ان علينا ان نتصل ببعضنا خلال شهر أو اثنين لننهي الأمور.»

في تلك الأثناء سيعلم جميع سكان المنطقة برحيلها،

وبأن زانا احتلت مكانها بعد إذ عادت إلى مكانها الطبيعي. وفي تلك الأثناء رغم معرفتها بأنها لن تتغلب على آلامها أبداً، سوف تكون قد أسست حياتها بعيدة عنه. استعادت كرامتها، وجعلها شيء في اعماقها بالغ المرارة يقول: «لا تصفق الباب عند خروجك، فقد يوقظ ذلك هاري.»

• • •

«يا له من يوم.» قال ويليام تمبليتون ذلك وهو يمرّر بأصابعه خلال شعره البني، وقد بدا الإرهاق على وجهه الخشن القسمات، «وشكراً لك يا بيث، فقد قمنا بعمل جيد...» اشرقت ابتسامته فجأة تلطف من قسماته الخشنة الخالية من الجمال، تلك وبادلته بيث ابتسامته، فقد كان رجلاً بالغ الرقة.

حتى انه كان بإمكانها ان تسامحه لإيقاظه لها في الساعة الرابعة هذا الصباح، بعد ان امتلأ خياله الخصب بالأفكار بالنسبة للقسم الثاني من كتابه الذي كان يسير حتى الآن بنجاح كامل.

قالت له وهي تغطي آلة الطباعة: «أتريد قهوة؟»

اومأ برأسه نفياً: «أريد ان أستلقي فترة واقترح عليك القيام بنفس الشيء، وإذا بقيت نائمة عند الظهر فسأصنع الغداء واوقظك موافقة؟»

أومأت بذهن غائب، بينما خرج هو من ذلك المكتب المكتظ بالكتب، وقد جعله الإرهاق الجسدي يبدو اكبر من سنه الأربعين، وبدت الرقة لأجله في عينيها الخضراوين.

اثناء العشرة ايام التي أمضتها في هذا المنزل الريفي

اعتادت على احترام وتقدير هذا الكاتب، فهو رغم نجاحه المادي الباهر لم يكن يبدو عليه أي أثر للغرور أو الاعتداد بالنفس، ورغم تكليفها بعمل شاق إلا انه كان منصفاً، ويدفع لها أجرا ممتازاً ويصر عليها ان تستمتع بما تشاء من أوقات فراغ، وذلك لكي يعوضها ما يحملها عليه من نظام عمل مرهق.

لكنها لم تشعر برغبة في العودة إلى السرير رغم عملها المتواصل في تلقي إملائه عليها، وذلك لمدة خمس ساعات، فهي لن تتمكن من النوم وإنما ستستلقي هناك فريسة للأفكار التي مازالت تكافح للتخلص منها.

عشرة ايام لم تكن كافية للشفاء من صدمة خسارتها لتشارلس، حدثت نفسها بذلك وهي تصعد إلى الحمام لتأخذ دوش، كانت تشك في انها ستشفى من ذلك، ولكنها كانت ترجو فقط انها مع مرور الزمن ستعتاد الأمر ومن ثم ستتمكن من الإستمرار في حياتها دون ان يكون عليها ان تحترس من افكارها ومشاعرها بهذا الشكل.

كان مجيئها إلى فرنسا أحسن شيء قامت به، طمأنت نفسها بذلك وهي ترتدي تنورة خضراء وقميصاً دون أكمام، ثم صنعت لنفسها قهوة احتستها في المطبخ.

لقد كلفها ويليام، وهي شاكرة له هذا، من العمل الشاق ما لم يبق لديها وقتاً للتأمل والقلق. وعند وصولها حيّاها وكأنها المنقذ، كما رفع معنوياتها للغاية بإطرائه البالغ لسرعتها في إنجاز مخطوطاته التي كانت تراكمت طوال مكوثه دون سكرتيرة، ولكن ماريت فوازان والتي تأتي في معظم الأيام لتقوم بوظيفة تنظيف المنزل، ستصل في أي

لحظة، مع انها وهي الفرنسية لم تكن تحسن سوى القليل من الانكليزية، إلا انها اخذت توجه اليها اسئلة فضولية للغاية وذلك في كل فرصة تسنح لها، وهكذا غسلت فنجانها ثم تسللت خارجة إلى حيث شمس الصباح.

كان المنزل يقوم في منتصف طريق ظليل يمتد بين بولوني ولي واست وعندما وقع عليه نظر بيث لأول مرة، أدركت انه أنسب مكان للاختفاء، ولكن ممن الاختفاء؟ وتملكها الإزدراء، ليس بها حاجة للإختفاء حيث لن يأتي أحد للبحث عنها، وتشارلس سيكون مسروراً تماماً لتطوعها بالإبتعاد عن حياته.

صرفت التفكير فيه عن ذهنها وقد تجهم وجهها، محاولة الإسترخاء تحت ظلال اشجار الغابة وكان هذا مكاناً في غاية الروعة لذلك، وتقدمت نحو جسر حجري يتدفق تحته جدول تتدافع مياهه متألقة تحت أشعة الشمس، وجلست بين الأشجار الدائمة الإخضرار وقد حبست انفاسها مبهورة لجمال ما يحف بها.

وإذا بصوت محرك سيارة قريبة يتناهى الى سمعها، فابتعدت قليلاً عن الحاجز، تاركة ما أمكنها، من مساحة في ذلك الطريق الضيق، ثم التفتت عندما شعرت بالسيارة تقف خلفها، ربما هو سائح يجول في هذه الأنحاء على غير هدى، ولكن شبه الابتسامة المهذبة تلاشت على شفتيها الناعمتين واخذ قلبها يخفق، بينما كان تشارلس يطل من نافذة السيارة قائلاً: «اصعدي.»

لم تستطع الحراك، لم تعلم ما الذي يفعله هنا، وكيف وجدها، ولماذا كلف نفسه هذا العناء، وفتحت فمها

لتعترض، ولكن لم تخرج منه كلمة، وأدركت انها لا بد تبدو الآن وكأنها سمكة ميتة، وجعل ذلك وجهها يتوهج من عنقها حتى منابت شعرها، ثم سمعته يشتم بعنف وهو ينزل من السيارة ليقف مشرفاً عليها وهو يقول: «لا تلقي عليّ هذه النظرات الجوفاء، يا امرأة، فقد تعارفنا من قبل.» واطبق اسنانه بحدة وعيناه تتفحصان وجهها الشاحب ثم تابع قائلاً: «انني الرجل الذي تزوجته، هل تذكرين؟ وقد وعدت عند عقد الزواج بأن تحبيه، وتصوني شرفه، وتطيعيه، اصعدي إلى السيارة إذن.»

كانت يداه القويتان متقبضتين إلى جانبيه، ما بدا معه وكأنه يهم بأن يهزها هزا، ثم إذا بها تندفع بالقول: «كلا.»

رأت شفتيه تتوتران وأساريره تتجهم: «إنني اقفل الطريق ولن اتحرك إنشاً واحداً من دونك.» وكان أحرى بهذا ان يحذرها ويدفعها إلى الصعود بجانبه، ولكن الذهول كان مايزال يتملكها بينما كان هو يستدير حول السيارة.

عندما صعد إلى جانبها، تمكنت من القول بصوت أبح: «انني موظفة هنا، وقد تأخرت عن العودة.» وكان هذا كذباً صريحاً ولكن يبدو انه صدقها لأنه قال بصوت هادىء يخفي الوعيد بين ثناياه وذلك بشكل لم تسمعه منه من قبل: «إذن دليني على الطريق فسآخذك إلى هناك.»

هنا لم تجد طريقة تتخلص بها منه، فهي إذا رفضت فسيقود السيارة بكل بساطة وإلى أي مكان يشاء له مزاجه الحالي، لم تره ابداً في مثل هذه الحالة من الغضب من قبل.

لذا دلته على الطريق بصوت حاد خفيض، وهي تتساءل عما إذا كان يعرف أي عذاب يسببه لها.

كانت قد وضعت لتوها، قدمها على الطريق الشاق الطويل نحو نوع من قبول تحطم زواجها، وإذا به يظهر فجأة ليعيدها إلى حيث البداية، كانت ترتجف في داخلها وهي تخترق الصمت بقولها: «كيف عرفت مكاني؟»

«من أليسون، ومن يكون سواها؟»

طبعاً، من يكون سواها، فقد استمرت صداقتها لأفضل صديقة لها من زمن الطفولة، وذلك حتى بعد ان تزوجت وتركت شركة هيلبلاين حيث كانتا تعملان معاً، فهي أول شخص يخطر لتشارلس أن يسأله عنها.

سألته دون وعي منها، وهي تهز رأسها بغباء: «ولكن لماذا تزعج نفسك بشأني؟»

ألقى عليها نظرة جانبية عنيفة، ثم قال بصوت جاف: «هل ظننت لحظة واحدة، أنني سأدعك تهجرين البيت، وبكل سهولة؟»

الفصل الثالث

غاصت بيث في مقعدها مغمضة العينين، لماذا لم تفكر في ذلك قبل الآن، إنه طبعاً لن يدعها ترحل، وبهذه البساطة، آخذة بذلك، المبادرة.

كان اسم تشارلس سافيج يعني مضاد العزيمة، وخشونة الطباع. وكان عليه دوماً أن يضبط أعصابه، فهو يكره الأشياء غير الواضحة، إنه يريد أن يعرف بالضبط ما تفعله زوجته، وأين وبجانب ذلك، فهو سيطلب طلاقاً سريعاً، بالطبع إنه يريد أن يبقى على صلة بها، أن يعلم بالضبط مكانها.

«منزل مريح تماماً.» جعلها قوله هذا، بما فيه من تهكم لاذع، وهو يوقف السيارة جعلها تفتح عينيها مجفلة. كانا في الفناء المبلّط أمام المنزل الريفي المبنيّ بالحجر.

«نعم، أليس هو كذلك؟ إنني أحبه، أنا فيه وكأنني في بيتي.»

في بيتها، وشعرت لهذه الكلمة بما يشبه طعنة السكين. فبيتها هو بيته، وهي لن تعود إلى هناك أبداً مرة أخرى، أخذت تقاوم دموعها وهي تلقي عليه نظرة متألقة متجاهلة التواء شفتيه الغاضب.

«ادخل إذا كان لديك شيئاً تقوله. فمن غير المعقول أنك قطعت كل هذه الطريق لمجرد تغيير المناظر.»

ترجلت من السيارة ثم سارت أمامه، تحاول أن تحتفظ بهدوئها. لقد تجنبت حتى الآن، عذاب سماعها له وهو يطلب

الطلاق لكي يصبح حراً في الزواج من زانا وأخذها، وابنهما ليعيشا معه.

لقد هربت ولكن ليس بالسرعة والابتعاد الكافيين. وها قد وصل إليها وسيكون عليها الآن أن تستمع إليه، دون أن تكشف شيئاً من مشاعرها.

فلو أنه عرف منذ متى تحبه، وإلى أيّ حد، لشعر بالأسف لأجلها. وهذا ما لا تحتمله، فالمذلة هي ما ستنتهي إليه. والأفضل لهما، هما الاثنين، إذا هو استمر في الاعتقاد بأن زواجهما كان من دون حب، ومن الناحيتين، وأنها قد قررت أن ذلك النوع من العلاقة لم يعد كافياً.

كان السكون يسود أجواء المنزل في الداخل. وقف هو خلفها في الردهة يسد طريق الشمس، وكان صوته في برودة الثلج وهو يقول: «أنتما الاثنان فقط تعيشان هنا، أليس كذلك؟ أنت والمؤلف الشهير. يا له من وضع شاعري.»

كما تقول.» وكان صوتها سريعاً خشناً، كان يجب أن يكون كذلك إذ أن انكار ما كان يفكر فيه بشكل واضح، هذا الانكار يكشف شيئاً من نقطة الضعف فيها. ولا حاجة بها لإخباره بأنها تنام في الملحق، كما كانت السكرتيرة التي سبقتها ولديها غرفة جلوسها الخاصة. وهي لا تأتي إلى المبنى الرئيسي إلا للعمل، وتناول طعامها. لا حاجة لجعله يعرف أنه لا يوجد رجل سواه في قلبها.

قالت: «هيا بنا إلى غرفة الجلوس. إن ويليام ما زال في غرفته، ولكنني واثقة من أنه لا يمانع بوجودك، بالنسبة لهذا الظرف.»

تحركت متجهة إلى باب بجانب المكتب، لكن قبضة

فولاذية أمسكت بها وهو يقول وقد توترت شفتاه بمرارة: «أتراه أمضى ليلة متعبة؟»

«نحن الاثنان، كذلك.» ونظرت إليه متحدية، لكي تخفي ما تشعر به من عذاب، وإذ رأت ارتجاف العضلات في جانب فكه، ساورها شعور ضئيل بالفوز لأنه، رغم كل شيء، يشعر بالغيرة.

لكنه فوز فارغ قصير العمر. ذلك أنها ما زالت زوجته وبالتالي ملكاً له. وقد حمل جسدها طفله ثلاثة أشهر. مع العلم انه من المستحيل أن تحمل مرة أخرى، ولكنه، مع ذلك، ما زال يعتبرها من أملاكه، وإن أنانية الرجل فيه لتزمجر غاضبة لفكرة ذهابها إلى رجل آخر.

اختنق صوتها بالتعاسة، وحاولت جرّ نفسها بعيداً ولكن قبضته اشتدت، وكان صوته ثقيلاً وهو يقول: «بيث، علينا أن نتحدث ألا ترين هذا؟» وللحظة خاطفة، كادت تصدق أنه يهتم بها، وأنه ما زال ثمة بقية من زواجهما، وأنه قد يكون هناك ما يمكن استخلاصه من الحطام.

رفعت عينيها ببطء تنظر إليه من خلال أهدابها الطويلة القاتمة فتملكتها رعشة سرت في كيانها بشكل واضح، وإذا بها تسمع صوت ويليام يقول من أعلى السلم: «هل كل شيء على ما يرام، يا بيت؟» كان صوته خشناً عدوانياً، ذلك أن رؤية رجل غريب يعامل سكرتيرته بهذه الخشونة هو أمر لا يحدث يومياً.

هكذا انتهت هذه اللحظة، ولا بد أنها تصورت تلك الغيرة وأصبح عليها أن ترجعها إلى مجرد تمنيات منها لأن تشارلس، حين أجاب عنها، كانت نبرات صوته عادية بالغة

التهذيب وتكاد تنبىء بالسأم وهو يقول: «تماماً على ما يرام، يا تمبليتون كنت ماراً من هنا فقررت الدخول لرؤية زوجتي.»

«آه، فهمت.» ونزل السلم ببطء، بينما تنهدت بيث.

عندما جاءت إلى هذا المنزل، أخبرت مخدومها أنها منفصلة عن زوجها. ولم يكن انهيار الزواج شيئاً غير عادي هذه الأيام، وربما يظن الآن انه سينزل كل صباح ليجد الزوج الغاضب عند عتبة داره. إنها ليست بحاجة إلى هذه المشاكل، وإذا هي شاءت أن تحتفظ بوظيفتها، فعليها أن تقنعه بالامتناع عن ذلك.

«بيث، هل لك أن تطلبي من ماريت احضار القهوة إلى المكتب؟ وأنت ستشربها معنا، أليس كذلك يا سافيج.» التفت ويليام إلى تشارلس وهو يقول له هذا. كان ويليام كما يبدو، قد اغتسل وغيّر ملابسه، وجعلته الراحة يبدو وأكثر نشاطاً.

شكره تشارلس بوجه متجهم، بينما استدارت بيث متوجهة إلى المطبخ.

كان الرجلان يتصرفان كعدوين يواجهان بعضهما البعض وكأنهما على استعداد للقتال حتى الموت في سبيل حقوقهما، لم تستطع أن تفهم السبب. قد تكون ما زالت متزوجة من تشارلس ولكن هذه العلاقة لن تدوم طويلاً لأنه يريد أن يتخلص منها. أما ويليام والذي لا بد أنه منزعج لاضطراب نظام عمله بوصول هذا الضيف غير المرغوب فيه، فيجب أن يعلم أن هذه الحادثة لن تتكرر. وعليها أن توضح له ذلك تماماً حال خروج تشارلس. فهي بحاجة إلى هذه الوظيفة وتنوي الاحتفاظ بها، والطلب من مخدومها أن يجعلها دائمة.

لم تكن ماريت في المطبخ، وهكذا صنعت بيث القهوة بنفسها وقد سرتها هذه المهلة التي هي بحاجة ماسة إليها لكي تتمالك نفسها وتبدو أمام تشارلس، عديمة الاهتمام عندما يحدثها عن الطلاق.

لكنها عندما حملت الصينية إلى المكتب، لم تكن حالة أعصابها أفضل منها عندما فوجئت بظهور تشارلس هذا الصباح.

كذلك الجوّ داخل المكتب لم يساعد في تهدئتها. فقد كان ويليام خلف مكتبه وعيناه تتوهجان، بينما تشارلس يزرع الغرفة كنمر في قفص يحاول الانفلات.

سأله ويليام فجأة: «إلى متى ستبقى في المنطقة؟»

أجاب تشارلس وعيناه تراقبان كل حركة من بيث وهي تسكب القهوة: «طوال ما أنا بحاجة إلى البقاء.» بدا العنف في عينيه الفولانيتين وهي تناوله فنجانه، وقال لها: «أتجعلين من نفسك ما لا يستغني عنه رجل آخر، مرة أخرى؟»

شعرت بيث بموجة باردة تكتسحها رغم توهج وجهها، فقد كانت كلماته هذه إشارة مباشرة إلى أنها قبل ستة أشهر من عرضه المفاجيء للزواج منها، كانت جاءت إلى بيته لتكون مدبرة منزله المؤقتة في غياب السيدة بيني التي كانت، كما قال، قد كسرت وركها وتحتاج إلى شهور للشفاء. كان كل شخص يعلم أن زانا قد هجرته تاركة إياه في عزلة كئيبة، كما كان كل شخص يعلم أنها كانت هاجسه الوحيد.

كان قد ذهب إلى شركة هيلبلاين التي كانت هي بيث، تعمل فيها مع أليسون، قائلاً وأساريره الصارمة تبسطها ابتسامة كانت نادراً ما تبدو على وجهه هذه الأيام: «أريد من يمكنها

أن تقوم بكل شيء. مدبرة منزل مؤقتة، وسكرتيرة أحياناً، وأحياناً مضيفة عندما أدعو زملائي من رجال الأعمال لمناقشة الأعمال في عطلات آخر الأسبوع. وهذا لعدة شهور فقط أي إلى حين عودة السيدة بيني. وأثناء ذلك أكون تدبرت من تقوم بالواجبات الأخرى.»

إلى هذه الأيام، لم تستطع بيث أن تفهم الحماقة التي جعلتها تتقدم بنفسها لهذا العمل بينما لديها ما يشغلها في شركتهما، هي وأليسون، كما أن حبها الخفي له والذي رفض أن يتلاشى، هذا الحب كان سيزيد تأججه وجودها معه أغلب أوقاتها. ولكن تشارلس لم يكن لديه مثل هذه التوقعات، بطبيعة الحال وأنه يعلم وكل انسان يعلم مبلغ حبه لزانا، والكآبة التي سكنت عينيه منذ رحيلها. ولكن تلك العينين الكئيبتين تألقتا سروراً وهو يقول لها، حينذاك: «هذا رائع. إن بإمكانك ما دمت تسكنين في القرية، أن تذهبي إلى منزلك كل مساء. وحيث انني أعمل في مكتبي في المدينة معظم أيام الأسبوع، فسيكون لديك الكثير من الوقت لوضع الترتيبات لآخر الأسبوع عندما يكون لديّ ضيوف. وهناك خادمة تأتي يومياً لتنظيف المنزل، وهكذا لن تجدي العمل مجهداً.»

لكن الذي حدث هو أنه أصبح يمضي في مكان عمله وقتاً أقل مما جعلها تعتقد، ما زاد من حبها الأحمق له.

كان ويليام من الفطنة بحيث شعر بتعاستها الآن وهي تقدم إليه القهوة، فنظر في عينيها بعطف وتساؤل. ثم التفت إلى تشارلس الذي كان صمته يحمل معنى التهديد: «أين تقيم؟»

أجابه تشارلس: «في ضاحية بولوني.» وذكر له اسم

فندق بالغ الفخامة، ثم وضع فنجانه نصف الفارغ على الصينية: «ولكنني لم أحضر إلى هنا لتبادل المزاح، فأنا أريد التكلم مع زوجتي على انفراد.» وسار إلى الباب ببطء وكأنه لم يعد يستطيع صبراً، وهو يقول للرجل عابساً: «إنني أدرك أنها سكرتيرتك، يا تمبليتون ولكنها قبل ذلك هي زوجتي وهذا أكثر أهمية.»

أثناء السكون المتوتر الذي ساد المكان، شعرت بيث وكأنها تريد أن تصرخ. شعرت وكأنها عظمة وضعت بين كلبين، ولا تدري لماذا.

قال لها ويليام: «بيث، هل هذا ما تريدينه أنت؟»

أومأت بالايجاب. فشارلس، بمزاجه هذا، يظفر دوماً بما يريده بالضبط دون اهتمام بالوسائل المتبعة. وحيث أنه هنا، فقد يتطرقان إلى حديث غير سار عن مستقبلهما. وعندما يستقر هذا الأمر، بإمكانها أن تتصالح مع مخدومها قائلة انها لم تكن تريد أن تثير أمور زواجها المأساوي هذا في المكتب، وعندما يظفر تشارلس بموافقتها على طلاق سريع، فمن المؤكد أنه لن يدع عينيه تقعان عليها مرة أخرى، فكيف بالبحث عنها هنا مثيراً الفوضى في مقر عملها.

كان تشارلس واقفاً عند الباب ينتظر وقد بان على وجهه فروغ الصبر. فسارت بيث نحوه، كارهة بقدمين ثقيلتين. ذلك أن سماعها طلب الطلاق منه سيكون أسوأ ما حدث لها في حياتها.

لكنها ستجتاز هذه المحنة، حدثت نفسها بذلك وهي تمرّ بجانبه رافعة الرأس، لتخرج من الباب دون أن تنظر إليه.

«هنا.»

كانت قد اتجهت إلى مقعد في الفناء تغمره أشعة الشمس، وقد بدأت ساقاها بالارتجاف توقعاً لما سيقوله لها. لكنها التفتت عندما سمعته يصيح آمراً، وهو يقف عند سيارته ممسكاً ببابها مفتوحاً.

فقالت بحدة: «لا تعاملني كما تعامل الحيوان، فأنا لن أخضع لأوامرك.» وأرغمت نفسها على اظهار الغضب إذ هو أفضل من إظهار التعاسة.

«هذا ما أخذت ألاحظه. اصعدي على كل حال.»

قالت وهي تسمر قدميها في الأرض: «مهما كان ما ستقوله لي، يمكن أن يقال هنا. فليس بقربنا أحد إننا وحيدان تماماً.»

قال عابساً: «لا أريد أن أبقى في ملك تمبليتون، هل تأتين إذن راضية أم أجعلك كذلك؟»

أطبقت فمها تمنع آهة مرتجفة. كان الوعيد في عينيه القاسيتين، واضحاً والأفضل لها الصعود إلى السيارة بكرامتها على أن يضعها فيها عنوة. لأنه إذا وضع يديه عليها، فستفضحها نفسها، كاشفة عما يعتمل في نفسها من مشاعر نحوه. ولم تعرف السبب في كراهيته السريعة هذه لويليام تمبليتون، البالغ اللطف بينما كان عليه أن يهز يده ويربت على ظهره مظهراً سروره لأنه قدم لزوجته غير المرغوب فيها، وظيفة وأجراً وسكناً.

ارتجفت وهو يصفق الباب خلفها بعد أن استقرت في مقعدها ثم استدار ليصعد إلى جانبها، كانت تعلم مبلغ ما قد يصل إليه من غضب. فقد طالما تحدثت مع زوجات زملائه ومستخدميه اللاتي كن يحدثنها عن ذلك، هذا رغم انصافه الدائم، ورغبته في

الاستماع إلى وجهات نظر الآخرين. أما غضبه الملتهب عندما يفشل شخص ما في التصرف حسب ما يراه هو مناسباً بالضبط، غضبه هذا يجب أن يتجنبه المرء بأي ثمن.

لكنها هي نفسها لم تجرب هذا الغضب حتى الآن. جعلها هذا تشعر بالضآلة والعجز وعدم الأمان وكأنها لم تعرفه مطلقاً، كأنه أصبح غريباً، خطراً، شريراً.

أثناء دخولهما الريف بسرعة، أرغمت نفسها على الجلوس عابسة مظهرة عدم الشعور حتى انها لم تسأله إلى أين يأخذها.

أما هو فكان صامتاً، كذلك وهو يقود سيارته السريعة بتركيز بالغ، ولم يدهشها هذا فمنذ ذلك الحادث، انقطعت بينهما وسائل الاتصال.

أخيراً، أوقف السيارة عند نهاية طريق في الغابة. فنزلت بيث منها، ثم أغلقت بابها واستندت إليه، كان التوتر وغضبه الصامت أكثر مما كانت تطيق. تنفست بعمق في محاولة منها لضبط النفس.

كان هو واقفاً أمامها صامتاً. رفعت عينيها إليه خائفة، لكنها عادت فأسدلت أهدابها الكثيفة القاتمة وهي ترى ما بدا في عينيه وملامحه من رقة ولين.

أهو عطف؟ شفقة؟ إنها ليست بحاجة إلى ذلك. لقد كان دوماً يعاملها برقة واحترام، حتى بعد أن فقدت الجنين الذي وضع فيه كل آماله. قد يكون شاعراً بالأسف لأجلها إذ هو يعلم بأنه على وشك أن يخبرها بالسبب الذي جعل زانا تعود إليه بعد كل ذلك الزمن.

لم يكن بطبيعته رجلاً قاسياً، فهو لا يريد أن يسبب لها

ألماً، ولكن ليس بإمكانه أن يفعل شيئاً بهذا الشأن، ذلك أن زانا كانت دوماً هاجسه الوحيد وما زالت، كما ستكون على الدوام. كل انسان كان يعلم هذا، وهذا هو السبب الذي جعل كل من يحبها يهتم بأمرها، والديها وأليسون، جعلهم يرفضون هذا الزواج ويحذرونها من قبوله.

كان عليها أن تستمع إليهم، لكنها كانت شديدة الثقة بقدرتها على أن تجعله ينسى المرأة الأخرى، ويتعلم كيف يحبها هي، كانت واثقة من ذلك خصوصاً بعد أن تعطيه الطفل الذي يريده.

قال لها: «تعالي لنتمشى.» كان صوته أجش ربما من الأسف لما سيقوله لها، وانما لم تكن تريد شفقته، كانت تريد حبه، ولكنها لم تحصل عليه قط، كما أنه لن يعلم بذلك.

عاد يكرر: «تعالي.» مد يده إليها، لكنها تجاهلتها وانحرفت جانباً جاعلة مسافة بينها وبينه، سائرة في طريق الغابة الضيق. تبعها هو حتى وصل إليها وقد عاد إليه الغضب.

نظر إليها من فوق كتفه قائلاً: «عندما رحلت وتركتني، كان عليك أن تقولي إنك لا تحتملين لمسة مني. إذن لما كنت أزعجت نفسي بالبحث عنك.»

أجابته على الفور، وقد أخذت تلهث لعلمها أنهما قد ابتدآ على الأقل المواجهة الأخيرة، أجابته قائلة: «لا أدري ما الذي جعلك تقوم بذلك.»

بإمكانها أن تحتفظ بكرامتها ما دام لن يكتشف كم كانت تشتاق إلى لمساته أثناء الأشهر الثلاثة الأخيرة.

تابعت تقول: «فقد كنت أظنك مشغولاً عني بعودة زانا إليك، مع هاري الصغير.»

كانا قد وصلا إلى فسحة تحيط بها أشجار عالية تنعقد فوق الرؤوس، بينما تتخللها أشعة الشمس. وهنا وقف، ثم استدار يواجهها، ثم وللحظة واحدة، كسا الألم وجهه، ثم سرعان ما تلاشى وعادت أساريره إلى طبيعتها المتحجرة وهو يقول لها: «إنني متفهم للغيرة التي تشعرين بها. ولكن لا تدعيها تفسد حياتك. فسيكون لك آخرون أنت أيضاً.»

لم تعرف كيف أمسكت نفسها عن صفعه. كيف منعت نفسها من إعلان اشمئزازها وغضبها منه ولكنها استطاعت ذلك بعد أن تذكرت في الوقت المناسب أنه، لاعتقاده بأن زواجهما كان دون حب من كلا الجانبين، من الطبيعي أن يفكر في أنها ستبحث عن رجل آخر، كما أنه يذهب مع امرأة أخرى.

الآن، حان الوقت لإيضاح الأمور، وتمالكت نفسها لأجل ذلك، متسائلة عما إذا كان سيسمع ضربات قلبها الثقيلة في ذلك السكون المعتم.

قالت له بهدوء: «إنني أعلم لماذا عادت زانا مع هاري. فقد سمعتكما تتحدثان معاً يوم وصولهما.»

ها قد قالتها، ولم يعد هو بحاجة إلى الإلقاء بالخبر. سمعته يجذب نفساً عميقاً، بينما هبطت كتفاه بارتياح وهو يقول: «إذن، فقد فهمت الأمر على الأقل.» وأظلمت عيناه بشيء لم تدرك كنهه ثم، وبعد فوات الأوان تقريباً، أدركت الفخ الذي سارت إليه بقدميها.

كانت أخبرته بأنها كانت سمعت حديثهما، وكانت تعلم أنه سيتذكر، هو أيضاً الأشياء التي قيلت. وكيف أنه كان سبق وأخبر المرأة التي يحبها بأن ذلك الزواج العقيم من

بيث غارنر غير المناسبة له، ذلك الزواج قد انتهى. وكيف أن هذا جعل زانا تعود محضرة معها ابنهما. وكيف أنها بذلت جهدها في تربيته وحدها، ولكن هاري بحاجة إلى والده، أيضاً.

تساءلت بيث، بسرعة، عن السبب الذي جعل زانا تترك تشارلس. فحبهما العميق لبعضهما البعض كان حديث الجيرة وأقاويلهم شهوراً طويلة.

لكنها ما لبثت أن نبذت هذه الأفكار بسرعة من رأسها، وقد تملكها الألم لنظرات تشارلس الحادة إليها. إن عليها، بأي شكل كان، أن تخلص نفسها من هذا الفخ الذي وقعت فيه.

عليها أن تجعل تشارلس يصدق كذبة، أن يصدق انها هجرته ليس بسبب عودة زانا ولأنه يريد الطلاق، بل لأنها هي، بيث قد قررت أنها عانت ما فيه الكفاية.

إن هجرها له قبل أن يطردها، كانت الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بكرامتها، بعد أن لم يبق لديها سواها.

أجابته: «طبعاً فهمت.» وتملكتها قشعريرة باردة رغم دفء الجوّ، لقد كان البرد في داخلها وتابعت تقول: «لم يكن ذلك ذا أهمية. لم يكن له صلة بالأسباب التي جعلتني أغادر البيت.»

«وما هي تلك الأسباب؟» ازداد اقتراباً منها، وتوتر الجوّ حولهما. ولم تستطع هي الكلام، كما أخذ قلبها يخفق بشدة دار له رأسها.

لم تستطع أن تكذب عليه، ليس بالنسبة لشيء كهذا. وعذّبها النظر إليه. كانت ملامحه متوترة. كيف بإمكانها أن

تنكر حبها له؟ الحب الذي أخذ ينمو في كيانها منذ كانت في الخامسة عشرة؟

أصرّ يقول: «ما هي أسبابك تلك، يا بيث؟» ضاقت عيناه وهو ينظر إلى وجهها المعذّب.

أجابت لاهثة: «إنها نفس أسبابك، كما أتصوّر. نحن الاثنان نعلم كيف كانت تلك الشهور الماضية. كل ما في الأمر هو أن زواجنا لم ينجح.»

بإمكانه أن يفسّر ذلك كما يريد. فكرت في ذلك وهي تحاول أن تكتم شهقة كادت تفضحها. ان أكثر التفسيرات احتمالاً هو أن يظنها مثله، قد تعبت من هذه العلاقة العقيمة غير المثمرة التي ماتت. والطريقة التي تجنبته فيها هناك، رافضة أن تمسك بيده، ستثبت فكرته هذه.

«لا أصدق هذا.» لقد بدا عليه وكأنها صفعته على وجهه. لم تفهم السبب... فقد كان ذهنها من التشوّش والاضطراب بحيث لم تعد تستطيع أن تفهم شيئاً، ولماذا لا يقبل ما قدمته إليه دون تعب... ثم يعود مسرعاً إلى زانا التي تنتظره؟ لماذا يريد هذه المواجهة معها؟

لم تعد تستطيع احتمال أكثر من ذلك، فمشاعرها أخذت تخذلها منذ سمعت ذلك الحديث، فحاولت أن تتجنب، بالهرب، ما قاله لها من أن لدى زانا ما تريد أن تقوله لها.

أغمضت عينيها بضعف، تحاول أن تكبت دموعاً ساخنة انهمرت على وجنتيها. كل ما كانت تريده هو أن يتركها وحدها، أن يسمح لها ببعض الكرامة، فقد نال هو ما يريده بالضبط.

«كلا، يا بيث، لا تبكي.» وقبل أن تدرك ما يحدث، كان قد

أخذها بين ذراعيه. وفي لحظة جنون، سمحت لنفسها بأن تستجيب له، مغلقة عقلها عن كل شيء.

همس لها: «أخبريني ما بك؟»

لقد كانت تسمح له بأخذ المبادرة، مرة أخرى، كما اعتاد دوماً خلال علاقتهما.

حسناً، لم تكن تريد أن تخضع لأنانية الرجل فيه. فأخذت تدفعه عنها بقبضتيها الصغيرتين وهي تصيح: «دعني، دعني، ألا تسمع؟»

لكن جهودها في دفعه عنها لم تنفع. بل بدت وكأنها تزيد من رغبته، ورغبته في اخضاعها كما أخذت تفكر بفزع.

«لماذا أدعك؟ إنك ما زلت زوجتي، تباً لذلك.»

عند ذلك، توقف سير الكون، وساد السكون باستثناء ضربات قلبها العنيفة في أذنيها. ذلك أنه بالرغم من أنه لم يعد يريدها في حياته، فهي ما زالت زوجته شرعياً، ملكه. كان يثبت ذلك لآخر مرة. ملكيته تلك لها.

الفصل الرابع

فكرت في أن رغبة هذا الرجل قد هزمتها أخيراً، لا شيء إلا ليثبت ملكيته لها، رغم انه لم يعد يريدها.

حين رآها ترتعش قال لها بوجه جامد وقد أخذ يخلع كنزته: «خذي كنزتي البسيها.»

قالت وهي تندفع نحو الطريق بسرعة: «كلا، شكراً. عليّ ان اعود.»

كانت تريد العودة إلى حيث الأمان في غرفتها الصغيرة في ذلك المنزل الريفي.

كانت تريد ان تفكر كيف ستشرح لويليام سبب غيابها عن عملها، ذلك ان لقائها به، لم يدع في ذهنها قدرة على التفكير في غير هذا حالياً.

ذلك انها في لحظة كانت تقول لزوجها انها فهمت السبب الذي يجعله يعيد زانا إلى بيته، وانها كانت تفكر في الطلاق قبل ذلك، وفي اللحظة التالية كانت معه.

«بيث.» هتف بذلك وهو يمسك بذراعها يديرها إليه. «علينا ان نتحدث.»

سحبت ذراعها من يده وقالت: «ليس الآن.» تركها وقد بدا التجهم على وجهه. فابتعدت عنه مرة أخرى، وهي تهتز غضباً.

كيف يتوقع منها ان يناقشا مسألة الطلاق الذي يريده، وما يتعلق به، كيف بإمكانه ان يخوض ذلك الموضوع الكريه؟ ألا

يرى اشمئزازها من نفسها؟ وكيف ان الغضب هو الشيء الوحيد الذي يجعلها تتمالك نفسها؟

ردت عليه بحدة: «خذني إلى البيت الآن، لا أريد ان أراك مرة أخرى أبداً.»

قال وهو يسبقها بالسير، ناظراً إليها من فوق كتفه: «إذا كان هذا ما تريدينه، فإن منزل تمبليتون ليس بيتك، إياك ان تنسي هذا.»

تملكها الغضب وعيناها الملتهبتان تخترقان ظهره وهو يسرع خلال الأشجار أمامها، إنه لم يعد يريدها في حياته زوجة له، ولكنه مع ذلك لا يستطيع التفكير في وجودها مع رجل آخر.

لكن علاقتها مع ويليام هي عملية فقط، فهي هنا لتعمل في وظيفة وفكرت في انها بعد ان امضت مع تشارلس ساعات عديدة لكي يتحدثا بأمر لا يستغرق اكثر من عشر دقائق، بعد ذلك قد لا يعود لها عمل تذهب إليه.

كان تشارلس قد وصل إلى السيارة قبلها ووقف ينتظرها ممسكاً بالباب مفتوحاً، فدخلت غير قادرة على النظر إليه قبل ان يطردها من حياته إلى الأبد.

هي الحمقاء المسكينة، قد ساعدته على ذلك. لقد حقرت نفسها فعلاً عندما خرجت معه. قاد السيارة عائداً إلى المنزل الريفي بصمت ران عليهما معاً... وعندما اخذت تفك الحزام من حولها، نظر هو إلى ساعته، وقطب جبينه وقد بدا عليه فروغ الصبر.

«اننا لم نجد حلاً لشيء. تباً لذلك.» نزلت من السيارة بسرعة بينما كان هو يقول متوعداً: «ولكنني سأعود لا تنسي هذا.»

ارتجفت اصابعها على الباب، وردت عليه بحدة: «لا تزعج نفسك. قم بكل الترتيبات اللازمة للطلاق وذلك من خلال المحامي.» ثم صفقت الباب، لتجفل بعد ذلك بلحظات وهي تسمع صوت محرك سيارته وهو يهدر، ومن ثم تنطلق بعد ذلك بزمجرة تفصح عن غضب سائقها.

كانت ترتجف وهي تدخل المنزل من الباب الخلفي متجهة إلى المطبخ، لم تكن تستطيع مواجهة مخدومها قبل ان تستجمع شتات نفسها، فمحاولة ايجاد سبباً تجعله عذراً لغيابها تلك الساعات، لن يكون بالأمر السهل، فهي بالطبع لا تستطيع إبلاغه بالحقيقة.

ابتسمت لماريت، مدبرة المنزل ثم اتجهت إلى ملحق البناء صاعدة إلى غرفتها الآمنة، سيمضي وقت طويل قبل ان تتغلب على المحنة التي حدثت لها بعد ظهر هذا اليوم، والإشمئزاز الذي شعرت به من هذا اللقاء. فهي لم تكن قادرة على مواجهة أحد قبل ان تتمكن من مواجهة نفسها.

لكن كان عليها أن تواجه ويليام، فهو يريد إيضاحاً من سكرتيرته التي غابت عن عملها ساعات.

وجدته في غرفة الجلوس في المنزل الرئيسي، وهي الغرفة التي يتناولان فيها طعامهما، وكان مولياً ظهره اليها، واقفاً عند النافذة، حاملاً بيده صفحات مخطوطة كانت طبعتها من قبل.

عندما دخلت الغرفة استدار إليها بحدة، وتملكتها الحيرة حين لم تر على وجهه الحسن المنظر سوى الارتياح، وهو يبادرها قائلاً: «هل انت بخير؟ عندما لم تعودي ظننت ان

ذلك المتوحش قد فعل بك شيئاً، لقد كنت ابتدأت أشعر بالخوف عليك.»

«آنا آسفة. ان... ان حديثنا استغرق وقتاً اكثر مما كنت اتوقع، لكنني سأعوضك عن العمل الذي فاتني.»

«إياك حتى ان تفكري في ذلك، مادمت عدت سالمة.» تقدم من المائدة التي كانت ماريت قد سبق وأعدتها، فسكب لها كوباً من عصير الليمون أخذته منه شاكرة، عندما جلست على الأريكة، جلس بجانبها، وهو يسألها: «هل كان حديثكما يتعلق بالطلاق؟ عندما جئت إلى هنا اخبرتني بأنكما منفصلان. نصيحتي اليك هي ان تعطيه مايريد، فهو سيأخذه على كل حال... إنه يبدو من ذلك النوع.»

أومأت وقد منعتها الصدمة من الكلام، وربت هو على كتفها بشكل حيرها وهو يقول بصوت أجش: «هل لديكم أولاد؟» اومأت برأسها نفياً وهي تفكر متأملة...

كلا، ليس هناك أولاد، ما عدا هاري... ابن تشارلس فقط، ولكنه ليس ابنها، بالطبع لن يكون لديها أولاد أبداً، لقد خسرت طفلها ومعه كل احلامها الحمقاء بالسعادة، وذلك منذ ثلاثة شهور.

انهمرت الدموع من عينيها فجأة، فقال ويليام بسرعة: «آسف فهذا أمر لا يخصني، ولكن إذا كان ذلك المتوحش يجعلك تعيسة، فنصيحتي هي أن تتركيه وتهربي، انسيه ولا تنظري إلى الوراء، فهذا لا يفيد أبداً، ولا تنسي إذا فكرت يوماً في ان تفضي بما يؤلمك، وتحتاجين إلى كتف تريحين رأسك عليه، فأنا هنا.» ثم احمر وجهه وغيّر الموضوع بسرعة: «انني سأقوم ببعض الابحاث الهامة على انفراد،

فلماذا لا تأخذين عطلة صباحية تذهبين فيها إلى بولوني حيث تتناولين الغداء وتحضرين معك عند عودتك سمكاً للعشاء؟»

فسألته: «هل انت واثق من انك لست بحاجة إليّ؟» لقد كان يبذل جهده للترفيه عنها، حتى انه اوجد سبباً لكي يجعلها تخرج للتنزه رغم الساعات التي سبق واضاعتها.

يا له من شخص عزيز لا يعلم أنها تفضل ان تجهد نفسها في العمل لكي تشغل نفسها وتنسى تعاستها، لكنها لم تشأ ان ترد اليه جميله هذا، خصوصاً وهو يقول باسماً: «لقد كنت اخبرتك انه عليّ جمع بعض الحقائق قبل ان أتابع كتابي، ثم انني احب السمك الطازج، فلا تنسي إحضار السمك معك.»

«لن أنس طبعاً.»

بذلت جهدها لتظهر السرور، شاكرة له للغاية عدم تعنيفه لها لغيابها تلك الساعات مع من اقتحم حرم بيته. رجل قد كرهه هو على الفور، كما كرهه تشارلس أيضاً، وللحظة واحدة، شعرت بإلحاح يدفعها إلى الإفضاء بأمرها إلى مخدومها الرقيق.

كان يريحها أن تتحدث عن الألم والتعاسة اللذين تعانيهما، وعدم الأمان إذ تعرف ان زوجها لم يعد يتظاهر بأنه يريدها بأي شكل كان، والصدمة المريعة التي تملكتها عندما عادت زانا إلى حياة زوجها، انها لم تتحدث عن هذه الأمور إلى احد من قبل، حتى إلى والديها.

لكنها نبذت هذه الفكرة جانباً وهي تتنهد، من تكون هي حتى تحمّل الآخرين عبء أحزانها؟ ان ويليام ليس سوى مخدومها، على كل حال، فإذا اخبرته بالحقيقة كلها، فهذا

لن يفيد في سوى إحراجه، ليس ثمة من يريد ان يحمل متاعب الآخرين، وهي تريد ان تفكر في مستقبلهما العملي معاً.

• • •

أوقفت بيث سيارتها عند رصيف غامبيتا ثم اتجهت نحو مكان بيع السمك وثوبها القطني الأصفر يموج حول ساقيها وهواء البحر يحرك شعرها القاتم حول وجهها.

كانت هذا الصباح تسير بخفة ونشاط بالغين، وقد تملكتها شبه إثارة وشبه رجاء مقرون بالخوف في اعماقها، رجاء حاولت ان تقتله... وإذ فشلت، صممت على العمل.

اشترت السمك الذي طلبه ويليام ثم أسرعت عائدة إلى سيارتها، لقد كانت تستغل العطلة التي منحها لها ويليام، في استكشاف المدينة القديمة.

لكن رغم انها كانت شبه خائفة من ذهابها إلى تلك المهمة الحمقاء، فقد كان عليها ان ترى تشارلس والذي كان ذكر لويليام، حين سأله هذا اسم الفندق الذي يقيم فيه، قبل ان تستجمع قواها لكي تواجه تحطم زواجها الذي لا رجعة فيه وذلك من نفس الرجل الوحيد الذي أحبته، قبل ذلك عليها ان تراه للمرة الأخيرة.

إذ اخذت تحاول تهدئة ضربات قلبها المتلاحقة، وان تطمئن نفسها إلى أن لا شيء قد يحدث من وراء اجتماعها الأخير به هذا، وجدت فسحة في موقف سيارات، ثم اخرجت مرآة حقيبتها تتفحص فيها وجهها. كانت عيناها

الخضراوان الكبيرتان متألقتين للغاية، ما بدتا بذلك كبيرتين بالنسبة لوجهها الصغير. كان حول فمها خطوط نتيجة الإرهاق النفسي، وكذلك هالة داكنة حول عينيها نتيجة عدم كفايتها من النوم.

اعادت المرآة إلى الحقيبة وغادرت السيارة، ان تغير مظهرها نتيجة أرقها تلك الليلة، لن يغير من الأمور شيئاً.

لقد استلقت في سريرها أرقة، تعذبها الذكريات، منذ شهور، بعد ذلك الحادث، لم يقترب زوجها منها، حتى ولو بلمسة يد، كان حريصاً على ان يتجنب أي مقابلة بينهما، وقد زاد من تغيّبه عن البيت.

لكنه عصر أمس، تصرف وكأنه كان في غاية الشوق إليها، لم يبد عليه أنه كان يمضي وقتاً عابراً مع امرأة لم يعد يهتم بها.

هل كان سيبدي نحوها كل ذلك الشوق والرقة لو انها لم تعد تعني له شيئاً؟ كان هذا سؤالاً لم تستطع العثور على جواب له، ولكنها صممت على ان تسأل.

فإذا كان هناك أي أمل، مهما كان ضئيلاً في بقاء زواجهما، فهي إذن ستبدأ قتالاً مراً في سبيل الاحتفاظ به، عاهدت نفسها على ذلك وهي تسير في شوارع صغيرة تحف بها المتاجر والمطاعم.

كانت ترجو ان لا يكون قد عاد إلى الوطن، حيث تذكرت كيف كان أمس ينظر إلى ساعته قلقاً، وأسرعت في سيرها، إذا كان هنالك أمل مهما كان بعيداً، في إنقاذ زواجهما، إذن لا بد ان يعترف بأبوته لهاري، ثم يزوره بانتظام، ثم يؤمّن مستقبله.

بإمكانها ان تتفق معه على ذلك، رغم خسارتها لطفلها، هذا إذا تأكدت من أن هاجسه مع والدة الصبي قد اصبح شيئاً من الماضي.

«حسناً، حسناً، أهذه أنت؟» ولم تخطىء بيث في تمييز صوت زانا الأبح فجمدت في مكانها وقد اكتسحتها موجة باردة، لم تستطع ان تصدق ما رأت.

التفتت ببطء نحو مائدة المطعم على الرصيف، والتي كانت تمر بها والسرور يشملها، واعتصر قلبها الألم وهي ترى عيني زانا الساخرتين.

جف حلقها، ووقفت جامدة تحدق فيها دون حراك، بينما اظهرت شفتا زانا المصبوغتين ابتسامة تهكم وهي تقول: «قال تشارلس انك تقومين بعطلة للعمل... يريد بذلك التلطيف من الحقيقة.»

وضعت فنجان القهوة على المنضدة واستندت إلى الخلف، كانت ترتدي ثوباً صيفياً وقد احاطت بوجهها خصلات شعرها الذهبي الأحمر، تابعت تقول: «لكننا جميعاً نعلم سبب هربك، فعقلك الصغير المتزمت لم يستطع ان يواجه حقيقة وجود هاري... حتى انك لم تطيقي ان تتحدثي في ذلك الموضوع، أليس كذلك؟ رغم ان عنادك وجبنك لا يمكن ان يغيرا من الواقع شيئاً، فما حدث قد حدث، حتى ولو كان احساسك المرهف قد جرح، فلن تتمكني من تبديل أي شيء.»

استطاعت بيث ان تتكلم أخيراً، قالت: «ليس لي نية لأن أحاول ذلك.»

لقد كان تشارلس يبحث عنها لغرض واحد فقط... وهو ان يتحدث في أمر الطلاق، حتى في هذه الأثناء لم يستطع ان

يفارق المرأة التي أحبها سنوات، المرأة التي لم تعد إلى حياته إلا حديثاً. تساءلت بعنف عما ستقوله هذه المرأة لو انها اخبرتها كيف ان مثل ذلك الحديث لم يجر بينهما، وماذا جرى بدلاً من ذلك بالضبط.

لكنها أمسكت لسانها لأن هذا عدا عن أنه سيسيء إلى شخصية تشارلس، فهو سيكشف عن ضعفها امامه... كيف انها تصرفت كزوجة بشوق إليه، بينما هو كما كانت تعتقد منطقياً، كان فقط يثبت ملكيته لها، وذلك لآخر مرة... خاصة بعد ان رأى زوجته، تعيش تحت سقف واحد مع مخدومها.

شعرت في هذه اللحظة بكراهية لكل انسان... لتشارلس لزانا، وخصوصاً لنفسها، وقالت باندفاع: «بإمكانك الحصول على ما تريدين. ولن يطول الأمر قبل ان يتخذ ابنك اسم سافيج قانونياً.»

في اللحظة التي انطلقت هذه الكلمات الجارحة من فمها، تمنت لو قطعت لسانها قبل ذلك. كل هذا لا ذنب للطفل فيه، فهو كما رأته في العطلة الأسبوعية تلك في بيتها، كان طفلاً غاية في الجمال والوداعة ويشبه تشارلس إلى درجة كان قلبها ينقبض كلما نظرت إليه.

تمتمت تقول: «انني آسفة.» ولكن لم يبد على زانا أن هذا الكلام قد جرحها، فقد كانت عدم حساسيتها لا يمكن تصديقها وهي تهز كتفيها قائلة: «معك حق، طبعاً، هذا ما اخططله أنا وهذا ما سيحدث.» ثم إذا بها تربت على الكرسي الخالي بجانبها: «إجلسي، فتشارلس لن يتأخر، لقد أخذ هاري ليتفرج على المرفا وقد رتبنا الأمر بحيث نجتمع هنا.»

نظرت إلى ساعة معصمها: «ينبغي ان يكون هنا في أية

لحظة، فنحن سنستقل الطائرة إلى الجنوب بعد الظهر.» إلى الجنوب حيث شمس المنطقة الفرنسية الرائعة الجمال، حيث يمكنهما معاً ان يستمتعا بالطبيعة الشاعرية، يعوّضان بذلك السنوات التي ضاعت في انفصالهما، وابنهما الصغير يوثق الرباط بينهما، كان عليها ان تعلم انه لن يستقر مع حبيبته وابنه في بيته ساوث بارك إلا بعد ان يتم الطلاق بينها وبينه، عند ذلك يدخلها المنزل بصفة زوجة له.

ردت عليها متمتمة: «كلا، شكراً.» وتملكها احساس بالمرض، هل توقعت زانا منها حقاً ان تجلس في انتظار حضور زوجها الذي يريد وبكل هدوء ان يخرجها من حياته؟ هل توقعت حقاً ان يجلسوا معاً، هم الثلاثة، يشربون القهوة، ويتبادلون احاديث متكلفة لا معنى لها؟ ذلك النوع من الأمور قد يحدث في تلك المجتمعات المتكلفة التي تعيش فيها زانا، ولكن هذا كان بالنسبة إلى بيث، أمراً بعيداً عن التصديق.

هزت زانا كتفيها بعدم اكتراث: «كما تشائين، اهربي واختبئي من الحقيقة مرة أخرى، فهذا لا يزعجني، لقد كنت اعلم على الدوام انك لست المرأة التي تستطيع الإمساك به.»

ابتسمت بحقد متابعة: «ان تشارلس رجل لا يسهل إرضاؤه، ولم افكر انا لحظة في انه بإمكانك مواجهة رجل مثله ومثل شخصيته الطاغية.»

ابتعدت بيث متعثرة دون ان تنطق بكلمة، ودموع الإذلال تعميها، لقد كانت كغيرها من الفتيات الصغيرات السن حولها، قد جذبتها شخصية تشارلس سافيج، لكنها بخلاف الأخريات، لم تنضج فوق هذه المشاعر لكي تبحث عن رجل أكثر مرونة.

هي الحمقاء العمياء البصيرة، قد اعتقدت ان بإمكانها التعامل معه... وبرغم كل ما حدث، بقيت على اعتقادها ذاك إلى نصف ساعة مضت... فيا لها من حمقاء.

أخيراً وهي تجلس في سيارتها، تمكنت من تمالك نفسها. ان زانا تعلم وكانت تعلم على الدوام، ان المرأة الوحيدة التي يمكن ان تحصل على مكان في قلب تشارلس، وتحتفظ به، هي امرأة لها مثل شخصية زانا نفسها، وإرادتها القوية.

ها هي ذي بيث تعلم هذا أيضاً، وتتقبله أخيراً، دون النظر إلى الوراء، انها ستجعل العالم يدرك انها قادرة على العيش من دونه، وبإمكانها تكوين حياتها ومستقبلها... بغض النظر عن الفراغ الذي سيحتويه.

لقد ابتدأت بقية حياتها الآن هنا، ومهما كان التدرب على ذلك شاقاً، فهي لن تنظر إلى الوراء.

بيد ثابتة، وأسارير متزنة، مدت يدها إلى مفتاح الإشعال...

الفصل الخامس

كانت حرارة شهر آب (اغسطس) خانقة بينما كان هزيم الرعد يتجاوب في الاعالي، وازاحت بيث عن عينيها خصلة من شعرها، وهي تحاول ان تركز افكارها على عملها، عليها ان تذهب إلى بولوني لكي تعيد ترتيب شعرها.

لكن ماذا يهم؟ فكرت في ذلك مغمضة العينين، وقد تملكها التعب، إن قرارها الشجاع بالإستمرار في حياتها دون ان تنظر إلى الوراء، ذلك القرار قد أصيب بعائق مميت، كيف يمكنها تجنب النظر إلى الماضي وهي منذ يومين فقط، قد اكتشفت أنها حامل؟

يومان من التفكير في عصر ذلك النهار، منذ اكثر من ستة اسابيع، عندما حملت بالجنين، يومان كاملان من التناوب بين الفرح الهائل وهي تعلم انها حامل وان الخوف من ان يكون حادث الاصطدام ذاك قد يمنعها من الانجاب ثانية، ذلك الخوف كان دون أساس، وبين اليأس الذي نتج عن معرفة ذلك بعد فوات الأوان.

ذلك ان تشارلس قد اصبح لديه ابن الآن. إبن قد رحب واعترف به، والمرأة التي لم يتوقف عن حبها، ذلك الحب الذي وصل إلى ان اصبح هاجساً يتملكه، تلك المرأة تستعد الآن لكي تصبح زوجته الثانية.

أين مكانها هي بيث من هذا كله؟ كانت في وضع صعب للغاية.

سيعود والداها من سياحتهما في منتصف الشهر القادم، ورغم ما سيشعران به من حزن لخبر طلاقها الوشيك، فسيتفهمان وضعها ويساندانها، لكن سيكون من الصعب عليها الإقامة في منزل والديها، في انتظار ولادة طفلها، بينما على بعد أقل من ميل، يستقر تشارلس وزوجته الجديدة وطفلهما في ساوث بارك.

ان ذلك سيجعلهم جميعاً في وضع صعب، في وضع لا يمكنها مواجهته.

«هل أنت بخير؟»

أدركت بيث ما بدا في صوت ويليام من اهتمام، ففتحت عينيها ثم استقامت في جلستها فوق عملها، شاعرة بالذنب، وهي تبتسم له قائلة: «انني بخير، ولكن الجو حار.»

لقد أخذت في الأيام الأخيرة تقلل من ابتساماتها له، محاولة ان تبقي علاقتهما في حدود العمل، لقد رأى تشارلس ما لم تره هي... وهو ان ويليام اكثر اهتماماً بها امرأة، منها سكرتيرة، لكنها اخذت تعلّل لنفسها بأن حبها لتشارلس قد أقفل إزاء كل الرجال.

جاء يقف خلفها وهو يقول: «إننا نواجه عاصفة.» ووضع يديه على كتفيها، فشعرت بجسدها يقشعر نفوراً.

كان رجلاً بالغ الذكاء، ومخدوماً بالغ المراعاة واللطف، بإمكانه ان يصبح زوجاً ممتازاً لامرأة ما، لكنها لم تكن تلك المرأة، ودلتها غريزتها على انه يظنها تلك المرأة، كان رجلاً شريفاً ليس من النوع الذي يضيع الوقت، والآن ها قد تفتحت عيناها على ما كان تشارلس رآه على الفور. كان كل شيء موجوداً لمن له عينان... فالطريقة التي يتألق فيها

وجهه عندما تدخل الغرفة، والطريقة التي تستقر فيها نظراته على وجهها، الطريقة التي يلمسها فيها عندما لا يكون ثمة ضرورة لذلك... كما فعل الآن.

تحركت فجأة وبضيق في كرسيها، وإذا بيديه تسقطان على الفور، ثم يقول لها بسرعة: «دعي هذا العمل، فلا ضرورة للسرعة، فالناشر لم يحدد وقتاً للاستلام.»

سار نحو الناحية الأخرى من الغرفة، ورغم ان ظهرها كان إليه، إلا انها كانت تسمع عبثه بالأوراق على مكتبه، بينما التصق نظرها على الأوراق التي بين يديها جاهزة للطبع.

كان كتابه قد انتهى إلا من صفحات قليلة بقيت للطباعة، عندما ينتهي ذلك، سيكون عملها هنا قد انتهى وأصبحت حرة في الرحيل، ومع انها قد وجدت نوعاً من الإستقرار هنا، فقد شعرت بأنها لا تستطيع الانتظار عليها ان تقرر أمر مستقبلها، هذا عدا طفلها الذي لم يولد بعد، وهي بحاجة إلى الإنفراد بنفسها، دون أي ضغط كان، وذلك قبل ان تقرر ما هو الأفضل لإعالة نفسها وطفلها.

همهم من حيث كان جالساً: «لا يمكن للشخص ان يعمل في هذا الجو الحار، هذا إلى ان وقت العشاء قد حان تقريباً، لقد تركت لنا موريين لحوماً باردة وسلطة، لماذا لا تذهبين وتسوّي من شأنك؟»

عندما نهضت واقفة، على وشك ان تعتذر عن تناول العشاء، متعللة بصداع لكي تذهب إلى النوم مبكراً، سبقها بالقول: «ان عملك المؤقت هنا قد قارب النهاية، وأحب ان نتحدث معاً في هذا الأمر أثناء العشاء.»

سارت نحو الباب وهي تقول: «طبعاً.»

كان مخدومها قبل كل شيء، وإذا هو أراد ان يتحدث معها عن العمل، فليس في امكانها ان ترفض، كما انه مخدوم سخي، اخذت تفكر في ذلك بعد عشر دقائق وهي تستحم في حمامها الصغير، لقد كانت وفرت اكثر الأجر الممتاز الذي كانت تقاضته منه، وتعلمت كيف تعيش حياة اقتصادية إذ ان هذا ما ستفعله عندما تعود إلى انكلترا وتبحث عن عمل يمكنها من العيش هي وابنها.

فكرت وهي تجفف نفسها وترتدي ثوباً صيفياً في ان هذا الأمر لن يكون سهلاً.

ربما كان ويليام يريدها أن تبقى في العمل إلى نهاية هذا الأسبوع. إذ رغم ان ما بقي لديها من الطباعة لن يأخذ اكثر من ساعات قلائل، إلا ان هناك دوماً بعض التعديلات لويليام، وهو يقرأ الكتاب، وهذا يناسبها تماماً، كانت تفكر في ذلك عندما وصلت إلى المنزل الرئيسي لتجد ويليام قد سبق وأعد المائدة ثم احضر الطعام من الثلاجة.

كانت تعلم ان ذلك لم يكن بالمهمة الكبيرة ولاحت على شفتيها ابتسامة لما اظهر من عدم الكفاءة بالنسبة لكل ما يتعلق بالأعمال المنزلية، وماريت تأخذ أجرها لكي تضع طعامه امامه، وفي احيان نادرة عندما كانت تخرج قبل موعد الطعام، كانت هذه المهمة تقع على عاتق بيث.

قال بإعجاب وهي تدخل: «تبدين منتعشة إلى حد رائع.» جعل هذا بيث تشتم نفسها لأنها ابتسمت له، ففي الأسابيع الماضية، عندما تفتحت عيناها على ازدياد اهتمامه بها

كامرأة، كانت في منتهى الحرص على ان تحتفظ بالرسميات بينهما، وفي مستوى العمل فقط.

ليس ذلك لأنها كانت خائفة منه، كلا، فهو ما كان ليأتي بأية حركة خارجة عن المألوف من دون تشجيع منها. كانت واثقة من انه ليس من ذلك الصنف من الرجال، وهي لن تقدم اليه التشجيع على كل حال، لذا قالت له بصوت جامد النبرات: «قد تكون المظاهر خداعة، كل ما أرجوه هو ان تثور العاصفة لتضع حداً لهذا الجو الحار، فأنا كدت اختنق.»

أخذ ويليام يفرك يديه وقد بدا عليه الرضى: «ان لدي العلاج لهذا، مشروبات مثلجة، ما رأيك؟»

ودون ان ينتظر جواباً، ملأ كوبين، ناول بيث واحداً منهما.

جلست على الأريكة واضعة الكوب بجانبها، لم تكن تريد ان تشرب، لأن المشروبات المنعشة تزيد من عطشها عادة. هذا إلى انها هنا فقط للحديث بشأن انهاء عملها، وهكذا سألته: «متى تريدني ان أرحل؟ هل يناسبك آخر هذا الأسبوع؟»

ان ما بقي من الطباعة لن يستغرق منها سوى ساعة أو نحوها، والأربعة أيام الباقية كافية جداً للقيام بأي تبديل أو اضافة مطلوبة، وحزم أمتعتها ثم تقرير أمر مستقبلها.

جلس بجانبها وهو يقول: «هذا ما أردت ان احدثك بشأنه.» كان يبدو في منتهى الإرتياح وهو يتابع: «عندما استقالت سكرتيرتي السابقة من العمل، اتصلت على الفور بوكالة مختصة بتوظيف الناس بشكل دائم، ويبدو الآن انهم

وجدوا من تحتوي على الشروط المناسبة التي وضعتها في ذلك الوقت، وهي ان تكون فتاة في الخمسينات وغير متزوجة، بالغة الكفاءة وليس لديها أي ارتباطات عائلية، تحب العمل والحياة في فرنسا وبإمكانها ان تبدأ العمل في الخريف عندما أبدأ بالعمل في كتابي التالي.»

«هذا عظيم.» شعرت بيث بالسرور لأجله، فقد كان واحداً من اكثر الرجال الذين عرفتهم كياسة، ويستحق كل راحة واستقرار في عمله، فحياته مسالمة غير معقدة، كما انه غير اجتماعي، ولا يهمه عدا كتاباته أو مؤلفاته، سوى القليل. قالت تحثه: «حسناً...»

في الخارج، كان الرعد يقصف بعنف ما جعلها تجفل، وأنار البرق الغرفة للحظة، بينما مسح ويليام جبينه بكمه وهو يقول: «يبدو هذا قريباً، لا اظنك خائفة، أليس كذلك؟»

«كلا.» كان الشيء الوحيد الذي يخيفها، ويثير الرعب في كيانها هو توقعها حمل عبء حبها لتشارلس بقية حياتها، ثم هزت كتفيها قائلة: «هل نتعشى؟ لقد تأخر الوقت.»

لم تكن جائعة في الحقيقة، ولكنها كانت بحاجة إلى الإنفراد بنفسها، إلى وقت تفكر فيه في مستقبلها، وبالنسبة إليها، كان حديثهما قد انتهى.

ذلك أن ويليام قد وجد لنفسه بديلة دائمة تدعو إلى الاعجاب، وفهمت من ذلك انه بإمكانها ان ترحل في نهاية الأسبوع، رغم انه لم يقل ذلك صراحة.

لكنه قال ببطء: «انني لست سعيداً لرحيلك هذا، انني واثق

من ان المرأة التي وجدتها الوكالة لي، هي امرأة ذات كفاءة، لكنني افضل لو انك تبقين وبشكل دائم، فهل تقبلين؟»

كان جالساً على حافة المقعد وعيناه المتوسلتان تنظران مباشرة في عينيها ما بدا معه وكأنه ينتظر قراراً منها سيؤثر على بقية حياته.

تنهدت بيث، لو تقدم اليها بهذا العرض منذ عدة أسابيع، لقفزت من الفرح، فقد كان العمل مثيراً، والمنطقة حولها مثالية، أما الأجر فأكثر مما تشعر بأنها تستحقه، أما الرجل نفسه فكان عزيزاً عليها، ولكن هذا كان قبل ان تنتبه إلى طريقة نظراته إليها... قبل ان تدرك انه يراها اكثر من مجرد سكرتيرة... قبل ان تكتشف انها حامل.

كرر يقول: «هل تقبلين ان تكوني بصورة دائمة...» غابت بقية كلماته تحت قصف رعد جديد، وهطل المطر بكثافة ضارباً النوافذ والجدران، وبدت الخيبة على وجه ويليام وهو يرفع صوته فوق ثورة العاصفة: «انني اطلب يدك للزواج، يا بيث، حالما يتم طلاقك سنقوم...»

«يمكنك ان تنسى ذلك، يا تمبليتون.» وجمد قلب بيث وهي تسمع ذلك الصوت الفولاذي القاطع ثم ساد الصمت والبرودة الغرفة. بدا وكأن تشارلس قد جاء معه بجوه الخاص، حتى ضوضاء العاصفة بدت وكأنها خفت، محاها غضب هائل اكبر منها، هو غضبه المكتوم.

كان واقفاً عند العتبة، وشعره الأسود الذي بلله المطر ملتصقاً برأسه، وقد بدا لون قميصه الأزرق قاتماً من فعل المطر، ثم قال وعيناه الملتهبتان تسمّران ويليام في مقعده: «لقد قرعت الباب، ولكنني لم اسمع جواباً، يبدو

انكما كنتما مشغولين جداً.» تحولت عيناه الفولاذيتان نحو بيث، متأملاً الثوب القطني الذي ترتديه، كانت نظراته الطويلة تلك بمثابة إهانة لها، وأخفضت بصرها شاعرة بوجهها يتوهج.

بإمكانه ان يفسر المشهد الذي رآه، كما يشاء، ثم انهما لم يسمعاه يقرع الباب، وأثناء ثورة العاصفة ماكان بإمكانهما ان يسمعا حتى القنبلة لو انها انفجرت عند العتبة، لكن عقلها لم يكن متزناً، كما افكارها بالغة التشوش مما منعها من ان تقول ذلك، كانت مازالت تحت تأثير الصدمة التي نتجت عن حضوره غير المتوقع وغير المرغوب فيه. كان ويليام هو الذي تكلم أولاً. فسأله: «ماذا تريد؟» لم يقل هذا بلهجة احترام، كما انه هو نفسه لم يبد كذلك بوجهه المقطب المتوهج احمراراً.

أجاب تشارلس ببساطة ولهجة محددة: «زوجتي.»

لم تتمالك بيث نفسها من الإرتجاف، لم تكن تعرف عنه من قبل مثل هذه النزعة إلى التملك، وبمثل هذا العمق والشمول، انه لم يعد يريدها لنفسه، ومع ذلك فإن كبرياءه لم تكن لتسمح له بأن يقف جانباً بينما رجل آخر يلاحقها.

«أنا آسف إذا كنت ترين هذه الفكرة كريهة إلى هذا الحد.» لا بد انه لاحظ ارتجافها طبعاً، فهو لا تفوته شاردة أو واردة، تابع قوله وقد تجهم وجهه بقسوة بالغة: «ولكنك زوجتي، هذه هي الحقيقة.»

سألته بصوت ثقيل النبرات: «ولكن إلى متى؟» لقد سمع كلام ويليام عن الزواج بعد الطلاق، فقرر ان يكون مستبداً ويقضي على هذه الفكرة في مهدها، دون ان يفكر في ان

تلهفه إلى زواجه الثاني يجب ان يكون له المقام الأول في تفكيره.

انه لن يعلم بأنها حتى ولو لم تكن حاملاً منه لن تقبل أبداً بالزواج من ويليام. كيف تفعل ذلك في حين ان الأحداث كلها قد تضافرت لكي تجعلها تمضي في طريق الحياة غير قادرة على ان تحب سوى رجل واحد؟

اغفل سؤالها هذا، وربما اصابه هذا في الصميم، ثم بصوت ثابت قال آمراً: «احزمي امتعتك، اننا سنرحل الآن.»

حملقت بيث فيه غير مصدقة: «قانونياً، انا مازلت زوجتك، لكن ليس بامكانك ان تأمرني بالقيام بأي عمل.» حاولت تمالك نفسها وهي ترتجف في داخلها، وان تبقى هادئة في قولها: «تذكر ان لي عملاً هنا عليّ ان اقوم به.»

اعقب ويليام كلامها، قائلاً: «هذا صحيح، يا سافيج، بيث موظفة عندي، وانا ادفع لها أجراً، ولديها عمل سكرتاري لم ينته بعد.»

سأله تشارلس ساخراً: «أهذا ما تدعوه العمل؟» ثم تابع يقول وعيناه لا تبارحان ملامح بيث المكسوة بألم مبرح: «بعد غد ستكون لديك سكرتيرة على حسابي الخاص، وستنهي أي عمل يمكن ان تكون زوجتي قد تركته غير منجز، وأي مشاريع أخرى قد تكون في ذهنك، يا تمبليتون... سيترك لحسن تقديرها، والآن اجمعي حاجياتك، يا بيث، أو ارحلي من دونها. ان هذا عائد اليك.»

مع ان ضبطه لأعصابه لم يتزحزح مقدار ذرة، إلا ان بيث

كانت تعرفه إلى حد تكهنت معه بمقدار غضبه، كانت تعلم ان اعصابه المتوترة قد تنفجر في أي لحظة بما يتبع ذلك من نتائج مدمرة.

كان ذلك ظاهراً لكل ذي فطنه، في قبضتيه المشدودتين، في عينيه الملتهبتين في فكه المتوتر العريض.

لكن ويليام لم تكن لديه الفطنة أو حسن التقدير لكي يرى أنه هو، لم يكن يعدو بالنسبة إلى تشارلس سافيج سوى رجل وقف في طريقه، رجل ينبغي سحقه تحت الأقدام دون اهتمام، إذا دعت الضرورة، وأحست بيث بالتوجس، عندما نهض مخدومها واقفاً، وهو يقول متوعداً: «والآن اسمع... لا يمكنك ان تقتحم منزلي بهذا الشكل لتخبر سكرتيرتي بما عليها ان تفعل، قد تكون زوجتك...» واحمر وجهه إزاء النظرة الساخرة التي رمقه بها تشارلس لكنه تابع: «ولكن بإمكاني ان اخبرك بشيء وهو انها لا تريدك، بل تريد الطلاق. وأنا لن أقف جانباً وأدعك ترغمها على القيام بأي شيء لا تريده هي.»

لكن توعده الشجاع هذا سرعان ما تبدّد، ثم تلاشى صوته وأدركت بيث انه قد ندم لتسرعه بالدفاع عنها وذلك حين جلس فجأة بعد أن رأى التهديد الملتهب في عيني تشارلس.

عندما قال له تشارلس محذراً: «حاول ان تتدخل في حياتي، فترى نفسك ملتصقاً بالجدار.»

سارت بيث ببطء نحو الباب بتوتر، لأنها كانت تعلم انه يعني كل كلمة نطق بها.

وقفت تنظر إلى الخلف نحو ويليام، الذي لم يشأ ان يبادلها النظرات بل أخفض بصره إلى الأرض. وقالت: «انا

آسفة، لم يكن لديّ أي نية في زجك في أموري العائلية، سأحزم أمتعتي الآن، وهذا هو الأفضل.»

سارت إلى غرفتها وقد تشنجت ساقاها، ثم جمعت حاجياتها مكومة إياها كيفما اتفق في حقيبة ملابسها. عندما انحنت تقفلها إنقطع النور، بعد ان ضرب البرق مركز الكهرباء في مكان ما. وإذا بذلك الصوت العميق يقول بأدب: «هل تريدين أية مساعدة؟»

أجابت بسرعة: «كلا.» ثم انحبست انفاسها، لم تستطع ان تراه، كانت تشعر فقط بوجوده وكأنه كابوس، وإذا ما ازداد اقتراباً منها فستصرخ، سواء كان قريباً أم بعيداً، فقد كان يمثل خطراً لم تعد تأمل في الامساك به. لقد وثقت ذات يوم بحبها، ولكن هذا أصبح الآن غير ذي جدوى، فهو لم ينفع، ولن ينفع أبداً، وملاحقته هذه لها، ورغبته في اخضاعها، كانت تملأها رعباً.

لكنها لن تجعله يرى ذلك، ان كل ما ربحته من وراء انفصالهما كان كرامتها، واحترامها لنفسها ووقفت تحمل حقيبتها امامها، وبصوت يموج بالغضب لما يفعله بها، وما يدفعها إلى معاناته. قالت: «ليس لك الحق في اقتحام هذا المكان، ملقياً بثقلك حولك، فعدا عن أن هذا هو منتهى رداءة السلوك، فهو يجعلني اشعر بأنني رخيصة تافهة.»

«ان لديّ كل الحق في ذلك عندما اسمع رجلاً يطلب يد زوجتي للزواج، لقد اخبرتك بأنني سأعود، وإذا كنت تشعرين بالرخص والتفاهة فربما كان ذلك نتيجة لسماحك لتمبليتون بأن يأخذ حريته معك اثناء الأسابيع الأخيرة.»

كان صوته يأتي ثقيلاً من خلال الظلام المتكاثف

حولهما، عضت شفتها متجاهلة تلك الإهانة المثيرة للإشمئزاز إذ انه من يكون لكي يوجه مثل هذه الشتائم في حين انه يستمتع بصداقة المرأة التي ينوي الزواج منها؟ وبدلاً من ذلك قالت له بعنف: «حسناً، كنت قد قلت انك ستعود، فما الذي اعاقك كل هذه المدة؟»

كأنها لم تكن تعلم، كيف بإمكانه ان ينزع نفسه من جانب زانا في جنوب فرنسا الشاعرية؟ ومن صحبة ابنه، وذلك لكي يزعج نفسه مع زوجته التي لم يعد بحاجة إليها، أما لماذا يزعج نفسه بالمجيء أخيراً، فهذا ما لن تعرفه أبداً، إلا اذا كان يريد استعراض قوته.

قال لها بجفاء: «أشك في انك ستهتمين بما سأوضحه لك، فقد اظهرت قلة اهتمام بالغ فيما عدا نفسك.»

كانت ماتزال تحاول التجاوز عن ذلك التعنيف عندما أنار البرق المكان، فتقدم إلى الأمام نحوها ماداً يداً لحمل الحقيبة عنها، أو بالأحرى للإمساك بذراعها بقوة، وهو يقول: «فلنذهب، إنني اعرف مكاناً افضل لنقاشنا هذا.»

في الظلام كان من القرب منها بحيث اخذ دمها يغلي. لقد كانت العاصفة في داخلها تفوق العاصفة خارج جدران هذا المنزل الريفي القوية، كان من الصعب ان يجدا طريقهما خلال هذا الظلام الدامس، ولكن بيث لم تكن تفكر في ذلك، فقد كانت كل احاسيسها، وافكارها مركزة على هذا الرجل الذي بجانبها.

عندما تعثرت بمنضدة المطبخ، امسك بيدها كي لا تقع.

أطلقت شهقة معذبة، وقد آذاها قربه منها اكثر مما آلمها اصطدامها بحافة المنضدة، لكنه ما لبث ان تقدم إلى الأمام

آخذاً إياها معه، وبالرغم من شدة الظلام كان بإمكانه ان يرى كالهر، مع انه في مكان غير مألوف لديه، وعندما ترك ذراعها لكي يفتح الباب ثم يخرجا إلى الفناء، استندت إلى ذلك الباب المصنوع من خشب السنديان، ثم اخذت تعب من الهواء النقي المشبع بالمطر.

عند ذلك فقط تمالكت افكارها، واصبحت قادرة على توجيه السؤال الذي كان ينبغي أن يكون في ذهنها قبل أي شيء آخر: «إلى أين نحن ذاهبان؟ ولماذا؟» لماذا يصر على أخذها من هنا بينما كل شيء يمكن ان يتم التفاوض عليه بواسطة المحامي؟ من المؤكد انه لا يريد إعادتها إلى بيته ساوث بارك بينما سيأخذ زانا وهاري إلى هناك حالما يتم الطلاق.

إذا بجوابه المختصر: «إلى مكان لا تعرفينه، إنه مكان وجدته بإمكاننا ان نقرر فيه كل شيء دون مقاطعة من أحد.»

لم يكن ثمة فائدة من النقاش، ما الذي بإمكانها ان تقوله؟ انها ترفض ان تتزحزح إنشاً واحداً؟ ان هذا سيجلب ثورة غضب أخرى. وليس بإمكانها ان تتسبب بذلك في منزل ويليام، وهذه هي المشكلة.

«أليس لديك صرخة احتجاج؟ انك تدهشينني.» قال ذلك بمرح وهو يمسك بذراعها ثم يسرع بها تحت المطر قائلاً: «لا شك انك أدركت ان لا جدوى من الركض إلى تمبليتون ليساعدك، فصديقك الشجاع قد سبق وانهار.»

فغضبت لسخريته تلك. وغلى الغضب في داخلها وهو يجرها معه، وقدماها تغطسان في حفر المياه الموحلة، والمطر يصفع وجهها. من يظن نفسه لكي يهزأ ممن هو اكبر

سناً منه؟ ان ويليام رجل لطيف، وهو لا يمكن ان يعامل امرأة كما عاملها تشارلس. كما لا يوجد رجل عاقل يفكر في مواجهة تشارلس أثناء غضبه، فهزأه وسخريته به لا لزوم لها.

عندما وصلا إلى سيارته اخبرته بذلك وهي تنزع ذراعها من قبضته قائلة بخشونة: «ان ويليام هو رجل...»

فقاطعها قائلاً: «صدقيني انني لا اريد ان اعلم، إصعدي فقط.»

صعدت لتجلس وماء المطر يقطر منها بينما وضع هو حقيبتها في المقعد الخلفي ثم صعد إلى جانبها، خلع سترته المبتلة، ثم قذف بها إلى المقعد الخلفي، والتفت اليها آمراً: «إخلعي سترتك.»

«كلا.» واخذت ترتجف. فقال لها بخبث هادىء: «اخلعيها وإلا فعلت ذلك بنفسي.» كان يعني ذلك حقاً، واخذت اصابعها ترتجف وهي تفك أزرار سترتها. بينما تابع هو قائلاً: «كفاك تصرفاً بغباء يا عزيزتي، فليس لدي أي نوايا، صدقيني، وإنما لا أريدك ان تصابي بالتهاب رئوي، هذا هو كل شيء.» مد يده إلى الخلف وسحب دثاراً سميكاً: «يمكنك ان تلفي نفسك بهذا.»

ثم ناولها الدثار قائلاً: «غطي به نفسك.» ثم ابتدأ يقود السيارة وهو يقول: «هل تتجاوبين مع تمبليتون بهذه السرعة؟ هل هذه هي الطريقة التي جعلته بها يتوسل اليك ان تتزوجيه؟»

تصاعد غضبها وكادت تبكي، ولكن هذا لم يحدث وبدلاً من ذلك، وعندما شقت أنوار السيارة غياهب الظلام، قالت له

بعنف وقد شعرت نحوه في تلك اللحظة بكراهية لم تشعر بها من قبل نحو أي شخص أو أي شيء، قالت له: «انك تثير اشمئزازي، انك لا تعرف شيئاً عن علاقتي بتمبليتون، انك لا تعرف شيئاً، هل تسمع؟»

«نعم انني اسمع وانا سأعرف كل شيء عن علاقتك بتمليتون، هذا إلى الأشياء الأخرى، وهذا بالضبط ما يجول في ذهني، والمكان الذي نحن ذاهبان إليه، سيكون لدينا فيه كل الوقت الذي نحتاجه لذلك.»

كان هذا وعيداً لم يكن له موجب.

الفصل السادس

«ما هو ذلك المكان؟»

كانت قد مضت عليهما حوالي ساعة الآن في السيارة، وكانا قد اجتازا طريقاً وعراً في غابة لتكشف انوار السيارة الآن على بناء صغير قائم في وسط فسحة تظللها الأنوار من كل جانب، اجابها بجفاء: «انه كوخ، يمكنك ان تعتبريه بيتك مؤقتاً.»

جعل النور الخافت وجهه يبدو وكأنه مخلوق غريب عنها، ما جعل لديها شعور مخيف بأنها لم تعد تعرفه على الاطلاق... وانها لم تكن تعرفه حقاً أو تدرك تماماً ما بمقدوره ان يفعل، وأجابته متهكمة: «شكراً، ماا لذي كنت انا فعلته لأستحق مثل هذه المعاملة؟ وأين زانا وهاري؟» من المؤكد انهما ليسا هنا، ذلك ان تشارلس قد يقوم بأي شيء لأجل المرأة التي يحب، حتى انه يذهب راضياً إلى آخر الدنيا، ولكن زانا الذكية المحنكة لن تقبل بقضاء لحظة تحت سقف كوخ صغير قذر في قلب غابة تبعد أميالاً عن أي مكان مأهول.

أجابها متوتراً: «وأين تظنيهما؟» ورأت من النظرة التي سددها اليها انه يراها مجنونة أو حقيرة، أو الاثنين معاً.

هزت بيث كتفيها وهي تلف نفسها بالدثار جيداً. لم تفهم شيئاً من جوابه بالطبع، فهو لم يكن يريدها ان تفهم. ولكن بإمكانها ان تتكهن، انهما ينتظرانه في فندق دولي في جنوب فرنسا لكي ينهي ما بقي له من عمل مع زوجته.

عند ذلك ارتجفت وقد ابتدأ الذعر يتملكها وهي تتساءل عما عسى ان يكون ذلك العمل. بالامكان انجاز أي معاملة، وذلك بالطرق الحضارية ومن خلال محام، فلماذا يجرها إلى هنا، ويعرضها إلى عذاب الشوق لقربها منه.

كاد ذعرها ذاك يبدو عليها عندما أوقف السيارة واطفأ أنوارها. كان الظلام كالحاً كثيفاً، والسكون لا يخترقه سوى دقات قلبها والتي كانت واثقة من أنه يسمعها، وانه أيضاً يقرأ ما يجول في ذهنها من اضطراب ومخاوف، ولكنه قال لها: «إمكثي حيث انت ريثما أفتح باب الكوخ.» استطاعت ان تتنفس بشيء من الارتياح عندما غاب عن نظرها في الظلام. وعندما رأت نوراً خافتاً يبدو من إحدى النوافذ الصغيرة، كانت قد تمالكت نفسها نوعاً ما.

لو كانت تشتغل عند امرأة أو لو ان تشارلس لم يكن رأى ما غفلت عن رؤيته من مشاعر ويليام نحوها، إذن لما تكلف كل هذا لكي يتناقش معها في مسألة طلاقهما، ولما كانت صدقت ان الشعور بالتملك فيه من القوة بحيث يمتد إلى الزوجة التي لم يعد يريدها.

خفّ ما تشعر به من اضطراب بعد تعليلها هذا لتصرفاته، وأصبحت اكثر مقدرة على مواجهة ما ستأتي به الأربع وعشرين ساعة القادمة. فمهما كان ما يريد تشارلس أن يتحدث اليها عنه، فهو لا يمكن ان يستغرق من الوقت اكثر من ذلك، وستتملكه اللهفة للعودة إلى زانا وإلى ابنهما، والطريقة الوحيدة لمواجهة ما سيأتي هو ان تتصرف بكرامة، وان تستعمل المنطق وتحاول ان تخفي ما تشعر به من ألم.

ستبدأ الآن، منذ هذه اللحظة، تمسكت بالدثار حولها، ثم نزلت من السيارة شاكرة توقف المطر، لكنها كانت ماتزال تسمع زئير العاصفة من بعيد، وكانت قد اقتربت مسافة قصيرة فقط من ذلك النور الضئيل في الكوخ عندما ظهر تشارلس عند الباب.

«إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟»

كان ظهوره المفاجيء قد افزعها جاعلاً إياها تشك في قدرتها على مواجهة كل هذه الأشياء، ولكن كبرياءها عادت إلى نجدتها مرة أخرى، فتمالكت نفسها ووضعت في جوابها نبرة ساخرة وهي ترد عليه بمرح: «إنني ذاهبة إلى المدينة، هل هنالك مكان غير ذلك؟» مرت بجانبه قاصدة إلى حيث ذلك النور الخافت، ولكنه تمتم شاتماً وشدّها من يدها.

«دعني إنني قادرة على السير بمفردي.» ذلك لأن محاولته ليمسك بها قد زعزع استقرارها الذهني.

رد عليها بحدة: «كما تشائين.» ثم افلت يدها.

عضت شفتها وهي تراه يسير أمامها بخطوات واثقة كأي هر، ماذا عليها ان تفعل لكي توقف تدفق مشاعرها؟ كيف بإمكانها ان تتوقف عن حبه، وتصل إلى السكينة النفسية التي تتوق إليها؟ وإذ لم تستطع ان تجد الجواب، خائفة من ان لا تتمكن من ذلك أبداً، ابتدأت تلحق به، متجاهلة الأوحال، مهتمة فقط بالدثار محكماً حولها.

كانت غرفة صغيرة، ارضها من الخشب. كانت الجدران بيضاء خشنة، والأثاث من خشب الصنوبر، كان هناك حطب في المدفأة جاهز للاشعال، وكان المصباحان الزيتيان اللذان كان انارهما، يلقيان نوراً دافئاً، كما كان هناك سلم

خشبي ضيق يصعد من زاوية من الغرفة، لا بد انه لاحظ ما حاولت ان تبدو عليه من تأمل وبرودة لكل هذه الأشياء، إذ قال بلهجة لاذعة: «ان لدينا غرفتين، هذه وغرفة النوم أعلى، وكذلك المطبخ والحمام، انه مختصر ولكنه يفي بالمطلوب، أظنه كان يوماً ما كوخ حطاب، فهو ليس من الاتساع بحيث يكون كوخاً للصيادين.»

«لا افهم سبب ازعاج نفسك هذا.» كان في قولها هذا نبرة ساخرة، وانحنت تخلع حذاءها الملوث بالوحل، حريصة على ان تحكم قبضتها على الدثار الملتفة فيه باحكام، ومازالت محولة عينيها عنه، ثم تركته وسارت نحو باب يقود إلى مطبخ حديث البناء.

كان منزلاً مختصراً وكما سبق وقال حيث انهما لن يبقيا فيه سوى ساعات قليلة غداً، فهو وافٍ بالمطلوب ثم ولأنها احست بنظراته عليها، يراقب كل حركة منها، قالت له ببرودة: «إذا كنت تريد لسبب غير معروف، ان نتناقش في تفاصيل الطلاق شخصياً، بدلاً من ان يكون ذلك بواسطة محام، كان يمكنك ان تقوم بذلك هاتفياً، ألا تظن ان جري إلى هنا هو من نوع المهزلة المسرحية؟»

هنأت نفسها على هذا القول الحسن، لقد أصبح بإمكانها اخيراً ان تتصنع البرودة وعدم الاهتمام به. لكن هذا النجاح الصغير لم يجعلها تشعر بالتحسن، بل أسوأ من قبل، وسمعته يتنفس بعمق فنظرت إليه، راجية ان لا يبدو في عينيها أثر مما تشعر به من آلام، لكن ما رأته اذهلها، ذلك انه بدا كرجل يعاني من أمور كثيرة.

كانت ملامحه متوترة وخطوط وجهه عميقة، كان في

عينيه نظره موحشة لم ترها سوى مرة من قبل، وكان ذلك عندما تركته زانا أول مرة.

أول مرة؟ هزت رأسها دون وعي منها، وهي تدفع من ذهنها تفكيرها غير المعقول هذا، لم تجرؤ على السماح لنفسها بأن تصدق ان المرأة التي يحبها، وسيحبها على الدوام، قد تركته ورحلت مرة أخرى، ولكن أي شيء غير هذا يجعله يبدو وكأن النور قد غادر حياته؟

ثم بدد هذه التساؤلات من ذهنها قوله لها بصوته المنفعل: «واتركك سعيدة حيث كنت، لتستمتعي بحب تمبليتون، وتضعان الخطط الجميلة لما ستفعلانه عندما تتزوجان؟ انني آسف، يا عزيزتي، فأنا لا اتصرف بهذا الشكل، ولا انت ما دمت زوجتي.»

لم يكن ثمة فائدة من تذكيره بأنها لن تبقى زوجته مدة طويلة، أو ان تخبره بأن ويليام لم يبح بحبه لها بعد، وأنه لو كان فعل لهربت منه إلى مسافة أميال. وأنه إذا كان عرض عليها الزواج فليس معنى هذا انها كانت ستقبل ولو بعد مليون عام... كلا، لا فائدة من ذلك.

فجأة شعرت بالدموع تتجمع في عينيها، شاعرة بالتعب من كل هذا الوضع، كانت متعبة بشكل لا يصدق.

لا بد انه يتذكر عواطفها قبل فقدانها جنينها، ثم كيف رفض الإقتراب منها ولمسها بعد ذلك، اثناء الشهور الموحشة التي تلت حادثة الإجهاض، ثم جمع اثنين إلى اثنين ليخرج بنتيجة هي ان الإحباط قد دفعها إلى الاستسلام إلى ويليام تمبليتون.

كان وجهه شاحباً والإشمئزاز البالغ يبدو على شفتيه ما كشف عما كان يفكر فيه.

قالت بحدة: «كل ما أريده هو حمام ساخن، إذا كان يوجد، ثم اذهب للنوم. وإذا كان لديك شيء تقوله، يمكن ان يؤجل إلى الصباح.»

لم ينطق بكلمة، بل ألقى عليها نظرة طويلة، ثم حمل حقيبة ثيابها وصعد السلم الضيق وهي في أثره كارهة لذلك لولا ان هذا ما عليها القيام به، وكانت تحكم من لف الدثار حولها خوفاً من أن تتعثر به.

كان السلم ينتهي مباشرة في غرفة النوم، وكانت هذه بسيطة الأثاث ذات سرير مزدوج، فكرت وهي تنظر اليه انها ستكون بحاجة إلى شيء تصعد عليه لعلوّه عن الأرض، كما كان هناك خزانة صغيرة ذات أدراج وكرسي، ولم يكن هناك ابواب سوى واحد في الجدار المقابل مدهون باللون الأبيض، قال: «اما الحمام، فهو من هنا.» ووضع الحقيبة من يده ثم أشار إلى الباب الأبيض وهو يتابع قائلاً: «الحمام هو عبارة عن دوش فقط. وإذا كانت الكهرباء مقطوعة فالماء لا بد انه مازال ساخناً.» ثم استدار فأخرج كنزة داكنة من احد الأدراج واخذ يرتديها.

قالت بحدة: «لقد حان الوقت لهذا.» وكأنه أدرك سبب قولها هذا إلا انه لم يبتسم، وإنما رمقها بنظرة طويلة قاسية قبل ان يهز كتفيه قائلاً: «ان الجو بارد، سأشعل المدفأة قبل ان أصنع العشاء، الخبز والحساء يكفي.»

كان الجو قد أخذ يبرد، وجو الكوخ أصبح شديد البرودة، وذلك لمجرد وجوده، ولكنها لن تعترف له بذلك، كما انها لن تطيل عذابها في هذا المساء.

صباح غد هو قريب بما فيه الكفاية لكي تعرف كل

الأسباب التي دعته لإحضارها إلى هنا، والاستماع إلى كل ما يريد قوله، ألم يستطع ذلك بواسطة الرسائل أو الهاتف؟

قالت وهي تدير له ظهرها: «لا أريد شيئاً.» فتحت حقيبتها واخذت تبحث فيها عن القميص القطني القديم التي اعتادت لبسه ليلياً منذ تركته، وقبل ذلك اليوم المصيري الذي عادت فيه زانا، كانت تلبس على الدوام أروع قمصان النوم الحريري.

«هناك شيء واحد فقط...»

جعلتها خشونة صوته تجمد مكانها، واصابعها ترتجف وهي تسرع في اقفال الحقيبة، بينما كان هو يتابع قائلاً: «هل كنت تعرفت إلى تمبليتون قبل ان تتركيني وتذهبي إليه؟ أم ان ذهابك إليه وجعله يقع في حبك هو مجرد صدفة؟»

عند ذلك تحركت بشكل سريع عنيف وقد رفعت رأسها وتألقت عيناها بالتحدي: «إياك ان تتهمني بالعيب الذي فيك انت.» طوال مدة زواجهما بقي يحن سراً إلى المرأة التي أحبها حقاً، وعندما عادا فاجتمعا، رتب الأمر بحيث يلقي بها، بزوجته، كخرقة بالية، لا بد ان هذا ما فعله، فقد كانت زانا سبق وعلمت ان زواجه قد انتهى، هل كان هو اخبرها بذلك، أتراه توسل اليها ان تعود إليه واعداً إياها بأن يتخلص من زوجته التي لم يعد يريدها؟

عادت تقول بغضب بالغ: «انك تكيل الأمور بمكيالين.» لقد نسيت ما كانت عاهدت نفسها عليه من ان تتمسك بهدوء اعصابها، ولم يعد يهمها شيء، منذ وقت طويل لم يعد يهمها شيء: «ولكن كلا، فأنا لم اعرف ويليام قبل ان اذهب للعمل لديه. وأيضاً لم اجعله يقع في حبي.»

لقد كانت تعلم جيداً الدافع الحقيقي من وراء الزواج منها، فهو لم يخف رغبته في تكوين اسرة وانجاب أولاد يملأون غرف ساوث بارك الفارغة، ويرثون ثروته الضخمة، حتى انه لم يدع أبداً بأنه يحبها، لقد قرر بكل بساطة، وبعد تلك الستة اشهر من الامتحان لها في منزله، بأنها تصلح لتكون والدة مقبولة لأولاده، ومضيفة جيدة لضيوفه وزوجة مطيعة.

لوت شفتها ساخرة: «اتراني حقاً من ذلك النوع من النساء اللاتي يذهبن هنا وهناك ليقنعن كل رجل يتعرفن إليه، بالوقوع في حبهن؟»

كانت فكرة مضحكة غير معقولة، بدا فيها تشارلس أخيراً، في لونه الحقيقي، كاشفاً اسبابه لتصرفه الغريب هذا.

انه لم يتبعها إلى فرنسا لمناقشة طلاقهما، وقد جرها إلى هذا المكان لأن لديه بعض الأمور المعقدة ينبغي التحدث فيها.

ان هذا الداهية يحاول ان يقلب الأمور لكي يجعلها تبدو هي المذنبة وليس هو ولا بد انه فرك كفيه سروراً عندما دخل عليهما وسمع ويليام يطلب الزواج منها.

لقد كان حقاً متسللاً مراوغاً.

كان ينظر اليها وعلى جانب فمه ابتسامة صغيرة، وعيناه تنظران إلى ما ظهر من جسمها حين انكشف الدثار دون وعي منها، ثم اصبحت ابتسامته على شيء من القسوة حين قال لها: «انك قادرة على ذلك، في الحقيقة، قادرة على استمالة أي رجل ينظر مرة واحدة إليك، ثم يكون من الحماقة بحيث يظن ان بإمكانه الإحتفاظ بك والإطمئنان إليك.»

التقت عيناها أخيراً بعينيه، فقال ببطء: «هذا شيء يمكننا ان نتحدث فيه غداً.» ثم استدار على عقبيه، ومع أنها لم تفهم شيئاً مما قال، كان بإمكانها ان تقسم على انها سمعت ضحكته الهازئة الخافتة ترن وهو يهبط السلم بسرعة. حالما ذهب صممت على أن تستجمع قواها وتسرع بالاستحمام قبل ان يعود.

عندما وضعت المصباح الذي كان تركه لها، على رف الحمام، خطر في بالها انه قد يأتي لمشاركتها الغرفة، وجمدت لهذه الفكرة.

إذا كان قرر ان ليس بإمكانه ان ينام على الأريكة الضيقة القاسية في الغرفة السفلى، فماذا تفعل؟

هل تطرده؟ انها لا تستطيع مقاومته، وإذا كان قد قرر شيئاً فليس في امكانها تغيير ذلك، وإذا ما فكرت في ان تترك له السرير وتنام على الأريكة غير المريحة فسيغضب وهي تعلم ما ينتج عن غضبه.

• • •

لم يكن في الغرفة، وما كان هذا ليدهشها بالنسبة لمعاملته تلك لها في أواخر شهور زواجهما، ولكن كلا، هل ادهشها هذا أم تراها خيبة أمل؟ سألها ذلك صوت خفي في أعماقها ولكنها سرعان ما نبذت هذه الفكرة، كلا طبعاً، وإذا جاء فستتظاهر بأنها نائمة، ولكنها كانت تعلم جيداً انه لو لمسها فقط، فستقفز من مكانها ولو كانت اللمسة مصادفة.

ذلك ان مشاركته لها الغرفة، لن يكون سوى عقبة أخرى

في سبيل ما قررته لمستقبلها وهو ان تمضي في طريق حياتها دون النظر إلى الوراء، هذا بالنسبة اليها.

انه لم يحبها، ولن يحبها ابداً، لأنه لم يتوقف عن حب زانا، فما الذي يريده منها يا ترى؟

آه نعم، إن قصده هو أن يجعلها تبدو متشردة لا تخجل، وانها هي المذنبة في تحطم زواجهما، والأكثر من ذلك انها تعرف السبب.

فقد عاشت عائلة سافيج في ساوث بارك منذ أجيال، مالكين لأكثر الأراضي والأملاك التي تمتد حول المنزل أميالاً، وكانوا مطمحاً للأعين، ويشار إليهم بالبنان بأنهم مالكون أخيار، معروفون بحبهم وشفقتهم واهتمامهم بحياة ومشاكل القرية والمزارع المنتشرة حولها.

كان الأهالي يبادلونهم ذلك الاهتمام بإفراط، ولم يكن ما يفعله آل سافيج يخفى على ملاحظة الأهالي ما يدعو لانتشار الأقاويل بسرعة. وحماسة. كان والدها قد قال مرة: «قد تكون الثرثرة من نقائص البشر، ولكنها هذه المرة زادت عن حدها، انني أرثي لذلك المسكين الذي عليه ان يسير في حياته امام أعين الناس الفضولية التي تحصي عليه حركاته، عرضة للقيل والقال، وكأن متاعب حياته لا تكفيه.»

حتى الآن تكاد تسمع صواب والدتها تقول له: «ان الثرثرة ليست سيئة القصد، فالناس يشعرون بالأسف لأجله... خصوصاً الآن بعد ان رحل شقيقه جايمس ليعمل في الخارج. مسكين تشارلس، فقد انزوى في منزله الكبير ذاك، وقد تملكه الإكتئاب، فقد كانت تلك المرأة، زانا هول،

هاجسه الأهم، كل شخص كان يعرف ذلك، والآن ها قد هجرته، يقول الناس انها رفضت الارتباط بشكل قاطع، وذلك بالزواج منه والعيش هنا.»

كرّر والدها قولها بسخرية: «يقول الناس... يمكنهم ان يقولوا أي شيء ولكن ما هو مقدار ما يعرفون من الحقيقة، في الواقع؟»

«قد تدهش لمبلغ ذلك. على كل حال، لا يمكنك ان تخفي شيئاً واضحاً مثل ذلك الهاجس الذي تملك تشارلس. كل شخص يقول ان لا فائدة من ذلك، وهذا صحيح أليس كذلك؟»

كلا... لم يكن ثمة فائدة من ذلك، كان هذا ما اخذت بيث تفكر فيه متأملة. لا بد أن تشارلي مدرك تماماً كيف ستنتشر الأقاويل وباشمئزاز كبير هذه المرة فيما لو علمت الألسن بأنه طرد زوجته بيث غارنر، ابنة الطبيب العام المحترم، من بيتها وذلك ليفسح مجالاً لزانا وأسرتهما الجاهزة، وبهذا السبب سيقوم بأي شيء لكي يبدو بمظهر الفريق المظلوم. انه لا يريد ان يفقد مركزه بين الأهالي واغلبهم من المستأجرين في أملاكه.

يبدو انه تأخر في النوم، فكرت في ذلك وهي تحاول النهوض من السرير العالي القديم الطراز، ولم تفهم كيف استطاع الرقاد على تلك الأريكة القاسية الضيقة، ولكنها كانت شاكرة تماماً إذ لم تسمع صوت تنقله في أنحاء الكوخ وهي تسمع ضوضاء الصباح المألوفة خارج الكوخ.

دخلت إلى الحمام لتخرج بعد عشر دقائق حيث ارتدت بنطلون جينز وقميصاً أخضر. انها ستكون في افضل حال بعد كوب ماء وشريحة من الخبز المحمص، وستكون

جاهزة لاستقبال ما يأتي به النهار مهما كان نوعه. وان كانت تعلم ان لا شيء سارا ستسمعه ولكنها بشكل ما ستتمكن من مواجهته.

اخذت تخفف عن نفسها وهي تهبط السلم. لم تكن تنوي أن تخبره عن الطفل الذي حملت به منه، فهذا سيبدو وكأنه ابتزاز عاطفي.

إذا كان يفضل زانا وهو كذلك طبعاً، فهي إذن لن تستغل ابنهما الذي لم يولد بعد في سبيل جعله يعيش معها هي، فقد كانت فكرة العودة اليه بينما هي تعلم أنه مغرم بامرأة أخرى، هذه الفكرة كانت تشعرها بالمرض، هذا إلى ان لديه ابناً الآن ليحمل اسمه، اعطته إياه المرأة التي لم يتوقف عن حبها يوماً.

كان هذا شيئاً سبق وقبلت به، وكلما أسرع هذا النهار بالإنتهاء، اصبحت هي حرة في قيادة بقية حياتها، كان ذلك افضل، وأول شيء عليها القيام به هو ان تخبر تشارلس بأنها تعلم ما الذي ينوي القيام به، وما الذي يحاول إثباته.

بعد ذلك تخبره بأن يذهب إلى حيث يشاء، لأنها ربما أخيراً قد نضج عقلها. فكيف يمكن لها ان تحب رجلاً يفعل بها كل هذا؟ وعندما يقفان وجهاً لوجه ستخبره بالضبط كم كان حقيراً، لا يستحق ان تفكر فيه لحظة واحدة، وإذ تقول له هذا بصوت عالٍ، فقد تجعله حقيقياً، ولكن القول اسهل من العمل، فقد أنبأها تفتيش الكوخ، والذي لم يستغرق اكثر من دقيقتين، انه غير موجود، كما كانت سيارته قد اختفت.

إذ وقفت في وسط الساحة حيث كانت الأوحال قد اخذت بالجفاف تحت أشعة شمس الصباح، بان القلق في عينيها الخضراوين، أين يمكن أن يكون ذهب؟

بعد نصف ساعة كانت ماتزال تسأل السؤال نفسه، ولكن بقلق أشد الآن، لأنه من المؤكد انه لم يزعج نفسه بالذهاب لإحضارها إلى هنا، لكي يختفي بعد ذلك من الوجود.

وفجأة خطرت لها فكرة فسارت نحو الثلاجة تفتحها، ثم تعود فتغلقها ببطء وقد تملكها شعور اكثر من مجرد خيبة الأمل.

انه لم يذهب إذن إلى أقرب قرية. ليتزود بالمونة، فقد كانت الثلاجة ممتلئة بكل شيء، ولا بد انه أمضى بعض الوقت هنا، وسكبت لنفسها كوب ماء اخذت ترشفه ببطء متأملة... خزانة المطبخ أيضاً كانت ممتلئة بالمعلبات والأطعمة المجففة، كما كانت تعلم ان لديه بعض غيارات الملابس في الأدراج ما يجعل من غير الممكن ان تكون نيته هو إحضارها والإلقاء بها في هذا المكان الذي يبعد أميالاً كثيرة عن أي مكان ماهول، دون ان يكون هناك أي نوع من المواصلات، وكذلك هاتف.

لكن ما كان أسوأ من تلك الفكرة بشكل بالغ، هو الألم العميق في صدرها الناتج عن افتقادها له، وهذا الشعور قد أجهز على نظريتها السابقة بأن كبرياءها لن تسمح لها بالإستمرار في حبه.

إذ سمعت صوت سيارة تدخل الساحة، شعرت بالوهن لشدة الارتياح، لقد عاد. واندفعت إلى خارج الكوخ وقلبها يخفق بعنف لم يكن ثمة ضرورة للعجب من شعورها بالمرح وخلو البال. انها ما زالت تحب هذا الرجل، ان قلبها الأحمق يرفض الاستماع إلى حكمة عقلها.

وقفت تنظر اليه وهو يترجل من السيارة، ثم دفعت

شعرها عن عينيها إلى الخلف، كانت يدها ترتجف، قد يكون شيء مما كانت تشعر به قد سرى إلى نفسه، لأنه اتجه نحوها ببطء حيث وقف وقال بمرح: «هل افتقدتني؟»

لم تستطع ان تنكر من أن أي احمق يمكنه قراءته على وجهها.

فقالت ببطء: «أي كنت؟» شعرت فجأة بالخوف وكأن الأشجار السامقة كانت تقترب منها متجمعة حولها حتى لتكاد تختنق.

استقرت عيناه الرماديتان لحظة طويلة على عينيها الخضراوين الواسعتين اللتين يملأهما الذهول، ولم تكن ثمة إشارة تساؤل وهو يتقدم نحوها مكرراً، بينما في عينيه تألق الفوز عميقاً: «انك افتقدتني.»

أدركت خطورة ذلك فحاولت الانكار. هزت رأسها بعنف بينما اخذت دقات قلبها تتسارع: «انك مجنون، لقد ظننتك ألقيت بي هنا ورحلت، فأخذت اتساءل عن المسافة التي عليّ ان اقطعها، جارة حقيبتي الثقيلة، قبل ان اصل إلى مكان متحضر... وهذا كل شيء.» التقت عيناها بعينيه تتحداه، اثباتاً لكذبها.

انه لم يصدق كلمة واحدة مما قالته وإذ شعرت بالغضب من نفسها لشعورها بالقلق عليه، قالت بحدة: «أين كنت على كل حال؟»

«كنت أبحث عن هاتف ثم رتبت أمر ذهاب واحدة من سكرتيراتي لتقدم نفسها لرئيسك السابق وذلك لكي تنهي ما بقي من عملك المهني عنده.»

ضغط بشكل خاص على كلمة المهني؟ ثم هز كتفيه قليلاً وهو يدخل الكوخ: «هذا ليس مهماً.»

تساءلت وقد تشوش ذهنها، وما هو المهم إذن؟ هاتان العينان الفولاذيتان تثيران مشاعرها كلما نظر اليها وتبعثان الاضطراب في نفسها وتفكيرها بينما يبقى هو هادئاً، مبتعداً عنها.

قال لها بصوت ثقيل: «لشد ما أنت رائعة الجمال.»

لم يسبق ان قال لها هذا يوماً من قبل... وللحظات قصيرة رائعة من عمر الزمن، صدّقته. لم تكن تستطيع أن تصدق غير هذا وهو يشدها من يدها صاعداً بها.

الفصل السابع

قال لها بصوت أجش: «إنك تريدينني حقاً. وهذا يثبت شيئاً ما.»

انفجر في ذهنها شيء ما حاد شديد الايلام قتل شعورها بانها تريده، شيء جعل كل هذا الافتتان يستحيل إلى رماد جعلها تبتعد عنه وقد استحالت مشاعرها بأجمعها إلى شعور بالعار وبأن ما يريد أن يثبته ليس إلا سرعة استسلامها وتجاوبها مع أي رجل قد يكون موجوداً. دون اعتبار للمشاعر، أن يثبت أنها لا تهتم بشخصية هذا الرجل حتى ذلك الذي ترتبط به وتطلب منه الطلاق.

قالت وقد ملأها الاشمئزاز من نفسها: «ابتعد عني. أتركني لحالي.»

كان مجرد التفكير في أنه يجري عليها اختباراً دنيئاً، وأنها خطة منه لكي يثبت شكوكه في خداعها له، كل ذلك كان يجعل صوتها ينضح بالألم والعذاب.

قال لها بصوت قاس: «ابتعد عنك؟ أبداً. والأفضل أن تصدقي هذا. ولا تجعليني أرغمك على ما نريده، نحن الاثنين.»

* * *

«هل أنت جائعة؟»

فتحت ببطء عينيها، فرأت تشارلس متكئاً على مرفقه ينظر إليها. فأخذت تتمطى، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة.

romancia.com

اتسعت ابتسامتها، فأدرك ما تفكر فيه، عندها قال: «الافطار بعد عشر دقائق.»

حين نزلت إلى المطبخ الصغير، كانت ما تزال تشعر بأن ذهنها ما يزال مشوشاً، كان كل ما تراه غائماً يلفه الضباب. ولكن خياشيمها تفتحت إزاء الرائحة الشهية للشواء، وقالت بمرح: «إذن فقد تغلبت على الفرن. إنك تستحق ميدالية.»

كان الفرن قديماً متصدعاً رهيباً يشتعل بقارورة غاز، وبدا لعينيها وكأن عمره ألف عام. لكن تشارلس منحها ابتسامة غريبة متوترة، ثم استدار يفتح باب الفرن، ونظرت هي إليه.

لكنه لم يكن ينظر إليها وهو يخرج صحنين من الفرن، ممسكاً بهما بخرقة، ثم يحملهما إلى المائدة بسرعة، رأت أنه قد اهتم بوضع غطاء عليها وشيء من الفاكهة المعلبة. كذلك علبة زبدة وطبق عليه خبز محمص وابريق أخذ يسكب منه شاياً معطراً.

قالت وهي تجذب مقعداً جلست عليه وأمامها طبقاً عامراً بالفطر واللحم المشوي: «أكاد أموت جوعاً.»

جلس أمامها وأمسك بالشوكة والسكين، وبدلاً من أن يرد عليها، قال: «والآن، أخبريني بالضبط لماذا قررت أن تهجري حياتنا الزوجية.»

شعرت وكأنه، بسؤاله هذا، قد سكب عليها دلواً من الماء البارد. فقد حبس أنفاسها وبقيت لحظة لا تستطيع الجواب بعد أن عاد إلى الواقع مرة أخرى.

فجأة، رأت أنها لا تستطيع مواجهة ذلك، مواجهة واقعه مع زانا وهاري. ولكنها أدركت أن عليها القيام بذلك. فما

حدث بينهما هذا الصباح يجب أن تنفيه من ذهنها بما في ذلك ما حدث بينهما في الغابة منذ أسابيع.

إنها ستنشيء حياة لها ولابنها الذي ستلده، وذلك بأي شكل كان، وقد حان الوقت الآن لكي تبدأ. أخذت تفكر في ذلك وقد تملكها التوتر، دون أن تجد في نفسها الشجاعة الكافية بالنسبة لهذا الأمر.

لذا قالت بصوت كانت ترجو أن يكون منطقياً هادئاً: «لقد سبق وأخبرتك بالسبب قبل أن أرحل. ولا بد أنك لم تنس ذلك.»

لم تستطع أن تحمل نفسها على ذكر زانا. لقد كانت أخبرته سابقاً كيف أنها سمعت ذلك الحديث، وربما يأخذ بجمع اثنين مع اثنين معاً إذا هي ذكرت اسم المرأة.

كانت كرامتها، أو بالأحرى ما بقي منها، تريد أن تجعله يظن أنها هي التي تخلت عن حياتهما الزوجية. فهي لا تريد أن تبدو، في نظره على الأقل، بمظهر الزوجة المحتقرة المطرودة.

أجاب ببطء: «لم أنس كلمة واحدة من تلك الكلمات. ولكن الذي أريد أن أعرفه هو السبب. لم يكن ينقصك شيء وكنا منسجمين معاً.»

تقبضت يداها بشدة، أتراه يظن أن الأمور المادية يحسب لها حساب؟ أيريدها حقاً أن تعترف بأن كرامتها، والتي كانت سبق وجرحت، قد جعلتها تهجره قبل أن يطردها؟ أترى كبرياء الرجل فيه ما زالت مجروحة حتى ينتزع منها مثل ذلك الاعتراف؟

ردت عليه بحدة: «كنا منسجمين معاً؟ أنا لا أوافقك على

هذا. فأنت لم تقترب مني لمدة ثلاثة أشهر... كما أن غيابك عن المنزل قد ازداد... لم تكن تطيق رؤيتي.»

كان وجهه الآن قد ظهر فيه مشاعر مختلفة تظهر في توتر فكه وشفتيه وفي الاكتئاب الذي بدا في عينيه، نظرت إليه وقلبها يخفق بشدة بعد أن ظهرت الحقيقة هنا بينهما بكل قسوتها وما تحمله من آلام.

قالت بسرعة: «إنك لا تريدني، في الحقيقة. ولم تردني يوماً، وقد تعبت أنا من رؤية نفسي الثانية في اعتبارك.» اطلاعه على هذه الحقيقة كان فوق طاقتها، لكن لربما يعرف من وراء ذلك حبها له والخالي من الأمل.

لكنه قال: «لا أدري ما هذا الذي تتحدثين عنه.» ثم سار إلى صندوق القمامة يفرغ فيه افطاره الذي لم ينهه، ثم استدار يواجهها بقوله. وبدا العنف في نظراته: «ألم تشعرك معاملتي شيئاً عن مبلغ رغبتي فيك؟»

رفعت وجهها مركزة نظراتها على الفراغ فوق رأسه لأنها إذا التقت نظراتها بنظراته، فستهزم كلياً. ثم قالت له وهي تهز كتفيها: «إنك لم تستطع حمل نفسك على لمسي خلال الأشهر الأخيرة من زواجنا... وقد دلني هذا على مبلغ رغبتك بي. أما... حسناً...» وحاولت أن تبعد نبرة التعاسة من صوتها محوّلة إياها إلى جمود أدهشها هي نفسها: «إنني سبق وعللت ذلك بشعور الاحباط.»

كانت تعلم أن هذا غير صحيح. إنه غير صحيح مطلقاً. ولكنه كان أسهل، نوعاً ما، من الاعتراف بشكوكها الكئيبة في أنه يستغلها لاقناع نفسه بتشوشها وخلطها بين الأمور.

توقعت منه السخط، أو حتى الغضب، لهذا التعليل. لقد توقعت ذلك ولكن ليس تلك الثورة الهوجاء التي تبعت لحظة صمت، والتي بدا وجهه أثناءها، بالغ التوتر، وعيناه تنفثان اللهب، ويداه قاسيتان وهو يسحبها من فوق مقعدها يوقفها على رجليها.

كان صوته خطراً منخفضاً وهو يقول: «إيتها الخبيثة، لحسن حظك أنني لا أضرب النساء.» أبعد يديه عنها فجأة وكأنما لمسه لها قد أثار اشمئزازه. لكن وجهه كان يحتقن كاللهب وهو يقول بصوت يموج بالمشاعر: «لم أقربك في ذلك الحين لأنني كنت لا أستطيع ذلك إلى حد مخيف. كان الشعور بالذنب يكاد يقتلني. هل تسمعين؟»

لقد سمعت. آه، لقد سمعت. ولكنها لم تفهم. وهزت رأسها وهي تتراجع إلى الخلف، وقد شحب وجهها بالأسى. كان الصمت مثقلاً بتلك الأشياء التي لم تكن تفهمها. فهي لا تدري لماذا يفعل ذلك بهما، هما الاثنين، ولماذا كان يعقّد سهولة خلاصه من زوجة ليتخذ أخرى مكانها.

كل كلمة كانت بمثابة طعنة سكين، ما جعلها تغير رأيها فيه، وفي ردة فعلها نحوه. وتابع هو يقول: «لقد كنت حاملة بطفلنا. وكانت البهجة تملأك. كنت امرأة واثقة مكتملة.» والتوى فمه مظهراً المرارة: «وإذا بي أغير هذا كله. ففقدت أنت الطفل، وكذلك كما نعلم، حظك في الحمل بعده. وقد كنت أنا خلف مقود السيارة.» استدار على عقبيه بعنف وكأنه لا يحتمل النظر إلى تلك المخلوقة المعذبة كما يظنها، ثم سار نحو الباب.

ابتدأت هي تقول إن ليس عليه أن يشعر بالذنب

وخصوصاً بسبب هذا الأمر. لكن الكلمات توقفت في حلقها عندما استدار إليها مرة أخرى، يواجهها، قائلاً: «لقد استأجرت هذا المكان لمدة اسبوعين. ظننت أننا بحاجة إلى هذا الوقت على الأقل وذلك لكي نقرر أمر مستقبلنا.» كان صوته قد أصبح جامداً الآن خالياً من الحياة أو حتى الاهتمام، كما بدا لها: «ولكنني الآن وجدت أن ليس بإمكاني الانتظار كل هذا الوقت الطويل، وليس لدي الصبر والحذق الكافيان لكي ننجز ذلك أثناءه.» خرج من الباب إلى أشعة الشمس، ثم عاد ليقول: «إنني أريدك أن تعودي إلى بيتك ساوث بارك حيث هو مكانك كزوجة لي. ولا أريد حديثاً بعد الآن عن الانفصال... أو الدعاوى وغير ذلك... وخصوصاً عن الطلاق.»

«لكن، ماذا بالنسبة إلى...»

«لا أريد اعتراضات.» قال ذلك وهو يشير بيده، ما منعها من أن تسأله عن وضع زانا وهاري بالنسبة إلى هذا الترتيب. بينما كان يتابع قائلاً: «فهذا واضح تماماً، فإما أن تعودي معي إلى انكلترا وسنحاول أن ننسى الشهرين اللذين مضيا، وإما أن تخبريني بأنك لا تريدينني بأي ثمن كان، عندئذ نمحو كل ما مضى. إنني لن أتوسل... حتى انني لا أريد أن أفعل ذلك، فهو قرارك أنت فقط. وأريده هذه الليلة.»

ثم سار مبتعداً بينما وقفت بيث تنظر إلى قامته الفارعة وهو يسير بخطوات واسعة قاصداً طريق الغابة حيث توارى بين الاشجار، تاركاً إياها شاعرة بالفراغ والوحشة كما لم تشعر من قبل.

عادت إلى المطبخ وأخذت تنظم المكان، فألقت بإفطارها الذي لم يمس، في القمامة، وكانت حركاتها ثقيلة وعيناها لا تكادان تريان ما أمامها.

بالنسبة إليها، كان السبب الذي جعل تشارلس يلقي إليها بذلك الانذار، واضحاً تماماً، ففكرتها السابقة والتي سرعان ما نبذتها، وهي أن زانا قد هجرته مرة أخرى، هذه الفكرة كانت صحيحة. شعرت بأنها تريد أن تقتل تلك الخبيثة، كيف تجرؤ تلك المخلوقة الكريهة على الإساءة إلى زوجها مرة بعد مرة؟

ثم شعرت بأنها على وشك الدخول في مرحل هستيرية، فاندفعت تغسل الأطباق تلهي نفسها بذلك.

كانت تحب تشارلس رغم كل شيء. والحب يعمي أكثر القلوب بصيرة. وقد أعماها الحب مرة، وهذا يجب أن لا يحدث مرة أخرى.

عليها أن تفكر في نفسها،أن تستعرض مسألة بقائها زوجة لرجل مغرم بامرأة أخرى وأن تلك المرأة هي سافلة غير قادرة على الحب الحقيقي الملتزم، ولا تهتم بمبلغ الألم والعذاب اللذين تسببه لوالد ابنها.

إن فشلها في الفوز بحبه في الماضي قد أعطاها درساً ستكون حمقاء لو أنها نسيته. ذلك أن علاقتهما قد تدهورت بشكل بالغ، دون أن يكون ثمة أمل في الخلاص، ولا في العودة مطلقاً إلى ذلك الاهتمام ببعضهما البعض والذي كان في بداية زواجهما، كل ذلك يثبته انذاره لها ذاك.

من الواضح أنه بعد أن هجرته زانا مرة أخرى، أصبح يفضل أن تعود هي إلى بيته وتقوم بواجباتها كزوجة له.

فهذا ينقذه من مواجهة الأقاويل التي ستتبع، دون شك، الطلاق. فكرت ساخرة، في أنها نجحت في أن تكون زوجة صالحة ما جعله يفضل أن تعود معه، ولكنه لن يهتم كثيراً فيما لو رفضت ذلك.

حتى ولو تملكها الاغراء في أن تبقى زوجة له، فإن الخشونة التي قدم إليها بها هذا الانذار، وعدم اهتمامه وهو يقول بأن بإمكانها أن تقبل أو ترفض، واعترافه الواضح بأن ليس لديه الصبر على محاولة اقناعها.

أما عدم إحساسه وهو يقول بأن عليهما أن ينسيا الشهرين الماضيين، فهذا يظهر بالضبط مبلغ قلة تفكيره فيها. كيف بإمكانها أن تنسى عودة زانا... محتضنة ابنهما... ورغبته الواضحة في أن يتخلص من زوجته الموجودة لكي يتزوج المرأة لتي لم يستطع أن ينسى حبها؟

أنهت العمل الذي بين يديها، ثم خرجت تتجول خارج الكوخ حيث جلست على مقعد خشبي قرب الباب الخارجي، ثم أغمضت عينيها. إنها ستواجه مستقبلها وحدها. وعندما يعود تشارلس ستخبره بذلك.

لقد انتهى كل شيء ما عدا شيئاً أخيراً وهو أنهما إذا افترقا غداً، أو حتى ربما الليلة، على أن لا يرى الواحد منهما الآخر مطلقاً مرة أخرى، فإن عليها أن تخلصه من ذلك الشعور بالذنب بالنسبة إلى فقدانهما لابنهما.

سالت الدموع ببطيء من تحت أجفانها المغمضة. إنها آخر دموع تذرفها لأجل أي منهما. لأنها لو كانت تعلم شعوره ذاك كما كان الشعور بالنبذ والحقارة قد تملكها،

وكان بإمكانهما أن يساعد كل منهما الآخر أثناء تلك الأيام الفظيعة والليالي الموشحة، والشهور الأخيرة من زواجهما السيء المصير، ما كانت لتنتج تلك الذكريات المرة التي لن تفارقهما، هما الاثنين، في مستقبليهما المنفصلين.

www.elromancia.com

الفصل الثامن

كانت بيث هادئة، بل بالغة الهدوء على الأقل كان هذا ما تظنه، إلى أن أقبل تشارلس، فتنبهت كل احاسيسها.

بدا فجأة عند عتبة باب المطبخ، ولا بد أنه كان قد سار أميالاً عديدة. فقد بدا متعباً، وشعره الأسود أشعث وكان يتخلله بأصابعه مرة بعد أخرى. اشتبكت نظراتها بنظراته فارتجفت. كان يبدو مرهقاً جائعاً تعساً ما شعرت به نحوه بقلبها يلتوي ألماً وعطفاً، حتى كادت أن تقبل بما يطلبه منها، وأن تكون ما يريدها أن تكون عليه. لكنها هزت رأسها دون وعي منها، تنبذ ذلك التفكير المؤلم. ذلك أن المشاعر المعذبة العنيفة التي يظهرها، هي نتيجة رفض زانا له مرة أخرى، إذ من المؤكد أن ليس لها علاقة بها هي سواء ما زالت تريد الطلاق أم لا.

قال لها بصوت خشن منخفض ينضح بالألم: «سنأكل بعد نصف ساعة.» فأومأت برأسها دون أن تستطيع الكلام. فقد جف فمها. واستدارت إلى حوض الغسيل حيث كانت تغسل الخضار لتصنع السلطة.

شعرت به يتحرك خلفها في طريقه إلى غرفة الجلوس فلم تشعر بالارتياح إلا بعد أن سمعت حركته في الحمام في الطابق العلوي. فوقفت مستندة إلى الحوض وأغمضت عينيها. لم تكن تريد أن تكون الثانية في حياته، كما أنها لا تستطيع مساعدته في ما أساءت زانا به إليه، لا أحد يستطيع

ذلك. فذلك راجع إليه وحده ولقوة ارادته. وهو من دون كل الرجال يمكنه بما فيه الكفاية على مواجهة ذلك الأمر.

أخذت تتساءل عما يمكن أن يكون سبب هجران تلك المرأة له، مرة أخرى. فقد كان يبدو عليها الاصرار على أخذ مكانها زوجة لتشارلس. وأكثر من سعيدة لهذا الوضع، مظهرة بصراحة رغبتها في أن يحمل ابنها اسم أبيه.

يبدو أن الأمومة فشلت في ترويض زانا العنيدة. فهي لا تحب أن يروضها أحد أو يحبسها في قفص، فهي تسير في الحياة لا تفعل إلا ما يسرها بالضبط، بغض النظر إلى من يمكن أن يتأذى من وراء أنانيتها تلك.

ابتعدت بيث عن حوض الغسيل، واستقامت وقفتها. رفضت أن تفكر في هذا الأمر أكثر من ذلك. ذلك أن عليها أن تحتفظ بهدوئها. تخبر تشارلس بأنها تريد ذلك الطلاق، وهذا يستلزم الهدوء البالغ وتمالك الأعصاب.

كان عليها أن تعد وجبة الطعام وعليها أن تركز اهتمامها في ذلك، وكانت تقلي اللحم عندما دخل تشارلس، فرمقها بنظرة متسائلة لم تستطع أن تعرف منها شيئاً، ما عدا أنه قد اغتسل وغير ملابسه إلى قميص قطني أسود وبنطلون ضيق.

سألها بوجه جامد: «هل يمكنني المساعدة في شيء؟»

أجابت وهي تضع السلطة والخبز: «كلا. شكراً.» كانت تفكر في أن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يساعدها به هو أن يجعلها تنسى أنها عرفته يوماً، أو أحبته في يوم من الأيام. فقال بلهجة مهذبة جامدة النبرات: «في هذه الحالة، سأفتح زجاجة عصير.» تساءلت بانفعال متى تراه سيسألها عن

قرارها؟ ثم عادت فنبذت هذا التفكير المثبط جانباً، فهو سيسألها عندما يكون مستعداً لذلك، وأثناء ذلك، لديها ما تقوم به لأجله، ولآخر مرة.

قلبت اللحم المقلي. ثم وضعت صلصة الخردل والمربى على المائدة.

ثم وضعت اللحم في صحنين وحملتهما وهي تقول: «إن ما كنت قلته قبلاً عن شعورك بالذنب ذاك، ما كان لك أن تهتم به. فما حدث لم يكن ذنبك. لا أحد كان سيستطيع تفادي ذلك الاصطدام.»

قال بصوت أجش: «لشد ما كنت سعيدة إلى أن حدث ذلك. فقد كنت أعلم كم كنت راغبة في ذلك الطفل، فكيف لي أن لا أشعر بعبء ذلك الذنب الثقيل؟»

جلس بجانبها ثم مد يده يمسك بذقنها ليميل وجهها إليه، مرغماً إياها بذلك، على أن تنظر في عينيه المسيطرتين: «وكنت أنا على صواب في هذا، أليس كذلك؟ كان شيئاً لم يكن بالامكان تجنبه. وغيرتك من هاري شعرت بها كالسكين تقطع فؤادي. وقد أخذت أراقبك، أثناء وجوده عندنا أثناء تلك العطلة، وأنت تنظرين إليه وكأن في أعماقك شيئاً يموت. لا يمكنك أن تتصوري مقدار تأثير ذلك في نفسي. وليس من السهل العيش مع اللوم الدائم للنفس.»

اللوم الدائم. يا لها من كلمة هزمتهما ومزقت ذلك الرباط الواهن الذي كان يربطهما معاً ذات يوم. لا عجب أن طردها من حياته، لكي يطلب الامان عند امرأة لم يستطع أن يتوقف عن حبها، كما أن اكتشافه أنها قد انجبت له طفلاً قد زاد في حبه لها. ضغطت شفتيها وهي تشيح بوجهها وتتناول

الشوكة والسكين. لقد كانت تغار حقاً من هاري الصغير، ولكن لأنه فقط كان ابنه. ابنه وابن زانا، وليس للسبب الذي ظنه. لم تعرف لماذا هو أعمى بهذا الشكل، وعديم الاحساس بالنسبة لشعورها.

ومن ناحية أخرى، كانت تعلم أنه حتى أثناء اللحظات السعيدة التي كانت تجمعهما معاً، لم يقل لها مرة انه يحبها. ولهذا لم تستطع أن تعترف له بنوع شعورها نحوه. فاعترافها له بالحب لن يفيد سوى في احراجه، كما يزيد في شعورها بالضجر المخيف والذي لديها ما يكفيها منه.

يبدو أن كل ما قالته لم يخفف من شعوره غير العقلاني بالذنب بسبب خسارة طفلهما، ولم تعرف كيف تستطيع مساعدته في هذا الشأن إلا إذا أخبرته بأن حكم الأطباء بأنها لم تعد تستطيع الانجاب هو على غير أساس، لأنها قد عادت فحملت من جديد.

رأته من زاوية عينيها يبدأ في تناول طعامه. لم تكن تبدو عليه شهية زائدة. تنهدت. يمكنها أن تساعده في التخفيف من شعوره بالذنب ذاك، ولكنها لم تكن تريد القيام بهذا العمل. ليس الآن. ربما بعد وقت طويل. لأنها ولأول مرة في حياتها، ستتصرف بأنانية تامة.

إنها ستبقى مسألة حملها سراً إلى أن تؤسس لنفسها حياة جديدة تمكنها من أن تعطيه حقه في زيارات منتظمه في المستقبل والتي سيصر عليها لكي يتمكن من مراقبة نمو ابنه. وسيكون من المفزع أن تقابله بشكل منتظم. ذلك أن الطريقة الوحيدة التي تتمكن منها من قتل حبها له العديم

الجدوى هذا، هو أن تنبذه من حياتها كلياً ومرة واحدة. لكنه إذا علم بالطفل القادم فسيكون هذا مستحيلاً.

قالت: «اللحم لذيذ.» كان عليها أن تقول شيئاً. أي شيء يقطع هذا الصمت المتوتر. فهو في أي لحظة الآن، سيسألها عن قرارها. وهي ستجيبه على ذلك. وهذا سيلغي نهائياً هذا الزواج والذي كان يمثل كل وجودها.

لكنها لن تفكر في ذلك الآن. إن جسدها يطلب غذاء، وهذا اللحم شهي، ولكنه يحتاج إلى اضافة شيء آخر فوقه.

مدت يدها إلى المربى الذي كانت وضعته على المائدة دون وعي منها، وبدون تفكير وضعت منه على اللحم مقداراً كبيراً، ثم قطعت منه لقمة وضعتها في فمها... لشد ما هي لذيذة.

من جانبها قال تشارلس متوتراً: «إنك حامل.»

غصت بيث باللقمة، وتوهج وجهها احمراراً. شعرت وكأن أحداً اكتشف أنها تقوم بعمل معيب. ومرت في ذهنها ذكرى سريعة.

بعد شهرين من حملها الماضي، كانت تتناول العشاء مع تشارلس خارج المنزل. وكان الاثنان قد اختارا لحماً مقلياً بشكل شاتوبريان. ثم إذا بتلك اللهفة الجنونية لوضع المربى عل اللحم.

لم يعلق النادل على ذلك بسوى رفع حاجبيه ولكن تشارلس تراجع في جلسته إلى الخلف. إنها تتصوره الآن كيف لوى شفتيه وهو يقول هازلاً: «إن زوجتي هي في وضع غير عادي ما جعلها تتخذ بعض العادات المخالفة للعرف.»

لقد توهج وجهها حينذاك، ثم أمسكت عن الكلام معه بقية المساء...

ارتفعت عيناها إلى عينيه وما زالت وجنتاها متوهجتين احمراراً، ورأت فيهما شيئاً يلتمع لم تستطع تفسيره بسوى تلك الذكرى التي يشتركان فيها معاً... وهكذا لم تستطع حتى أن تحاول الكذب عليه.

قال بسخرية رقيقة وهو ينظر إلى وجهها المتوهج احمراراً: «ما أسهل احمرار الخجل لديك، متى كنت ستخبرينني؟ أم لعلك لم تفكري في ذلك؟»

تلعثمت... بماذا تجيبه على سؤاله هذا؟ «أنا... عندما اعتاد أنا نفسي على هذه الفكرة.»

كان كل ما قاله، وقد ساد الغموض صوته: «عجباً.» ومنحها ابتسامة ساخرة متوترة قبل أن ينهض واقفاً وهو يقول: «تابعي الأكل، وسأصنع أنا القهوة.»

كان الحق معه، فهي لم تكد تأكل شيئاً طوال النهار. أخذت تفكر بسرعة بينما تابعت تناول طعامها قدر الامكان. فقد أصبح مذاق الطعام الشهي هذا، أصبح بمذاق التراب.

عندما عاد بصينية القهوة، أشار إليها بالجلوس على الكرسي المريح الوحيد هناك، ثم وقف وهو يقول وقد بان العنف في عينيه بشكل لم تره فيهما من قبل: «لم يعد موضوع الانفصال أو الطلاق قابلاً للبحث بيننا، بعد الآن. فأنت زوجتي، وحامل بطفلي رغم ما يبدو هذا الأمر تافهاً بالنسبة إليك. ولهذا ستعودين معي غداً إلى البيت حيث سيحيطك بالرعاية والمراقبة الدقيقة أحسن أطباء المنطقة. وإذا كانت تراودك أية أفكار غير مسؤولة عن الانفصال

وتربية الطفل وحدك، فدعي عنك هذا لأنني عند ذلك، سأرفع عليك دعوى بحضانة ابني والوصاية عليه. هل فهمت؟»

لقد فهمت تماماً، فهذا ما كانت تتوقعه. وهو السبب الذي جعلها تحاول إخفاء سرها. لم يعد ثمة طريقة تجعله يطلق سراحها الآن. فهو لن يتردد في رفع مثل هذه الدعوى بكل سهولة، وسينجح حتماً بالنسبة لما سبق وبدا عليها من رغبة في الهرب منه. على كل حال فهي لن تجرؤ على تلك المجازفة.

لقد اختفت زانا مرة أخرى، آخذة هاري معها. ورغم أن بإمكانه المطالبة برؤية ابنه، فقد يكون ذلك صعباً للغاية. لكنها هي بصفتها زوجته الشرعية، لن يكون لديها مثل هذه الحرية. فالطفل القادم هو ابنه، وهو سيحتفظ بما لديه.

لقد كان السبب الذي دفعه إلى الزواج منها ينحصر في رغبته في انجاب أولاد يرثونه، ويستمتعون بثمار كفاحه وتعبه، ويواصلون المسيرة.

لذا قالت: «نعم، إنني أفهمك.»

كان صوتها أجش، قد يكون تغلب عليها، ولكنها لن تسمح لنفسها بأن تنهزم يوماً ما، كانت تمتثل موافقة لكل ما يطلبه منها، وذلك بسبب حبها له، ولكن ليس الآن. لن يكون هذا بعد الآن. إنها ستنفصل عن تبعية حبها له. وقالت بصوت متهدج: «إنني موافقة على العودة معك، سأدير منزلك كما تتوقع مني، وأستقبل ضيوفك. ولكن في مقابل هذا، لي شروطي الخاصة.»

وقفت، ثم سارت إلى حيث وضعت فنجان القهوة الفارغ على المنضدة، شاعرة بالانسحاق تحت وقع نظراته

العنيفة. هذا أمر عليها أن تقاومه وتحاربه لتخرج من ذلك، وإن لم تكن الفائزة، إلا أنها ليست ضحية أيضاً.

«ما شروطك هذه؟» جعلتها لهجته الباردة القريبة من اللامبالاة، جعلتها ترتجف. كانت معرفتها به كافية لكي تدرك ما يكمن فيها من تهديد. رفعت رأسها دون اهتمام، ثم سارت وهي تحس بنظراته تتبعها، بينما تتظاهر بعدم الانتباه إلى ذلك.

«إنني بحاجة إلى أن أعمل، أن أنجز شيئاً بنفسي، أن أكون أكثر من مجرد ملحق لك.»

كانت تريد شيئاً تتمسك به، شيء يشغل عقلها عن علاقتهما المصطنعة تلك، شيء يزيل ألم معرفتها بأن حلمها القديم في أن تجعله يحبها، ذلك الحلم قد تبدد نهائياً.

أجاب: «فهمت. ولكن كيف سيكون ذلك؟»

فقالت: «ليس هناك داع للعجلة.»

كان لا يراها سوى شيء نافع له. تدير منزله الجميل، تعتني بضيوفه، تحمل له أولاده الذين قرر انجابهم. فهو لم ينظر إليها نظرته إلى امرأة ليست رغباتها محصورة في العيش في منزل رائع، وارتداء الملابس الثمينة.

تابعت تقول، متجاهلة ما شعرت به من ألم: «طالما طلبت مني أليسون أن أعود شريكة لها. فقد كنا منسجمتين معاً تماماً. وهي تريد توسيع نشاطها العملي، وهذا يشكل تحدياً يعجبني.»

تحدياً كافياً لاخراجها من مجال زواجهما المغلق والذي لا يرضيها. صحيح أنها ستنجب طفلهما، وأن حبها له سيلهيها عن كل ذلك ولكنها ستحتاج إلى شيء آخر. إلى

شيء هو خارج علاقتهما الزوجية العميقة، هذا إذا كانت تريد الاحتفاظ بصحة عقلها، واحترامها لذاتها.

«والطفل؟» قال ذلك وهو يسكب لنفسه فنجان قهوة آخر، وقد بدا في صوته التوتر وهو يتابع قائلاً: «إذا كنت تتوهمين أن بإمكانك الخروج إلى المكتب كل يوم، تاركة طفلنا إلى رحمة مربية مستأجرة، فبإمكانك أن تنسي ذلك.»

توترت شفتاها والتمعت عيناها، تماثل في ذلك ما رأته فيه من خشونة وعنف، ثم قالت بحدة: «إنني لا أتوهم.» نعم، لقد زاولها الوهم الآن. وتابعت تقول: «إنني سأعمل فقط في مجال تقديم العون، ويمكنني القيام بذلك من البيت، وأنت نفسك تعمل من البيت أحياناً كثيرة، أو أنك اعتدت ذلك.»

رأت حاجبه يرتفع قليلاً. لم يكن بالأحمق وسيكتشف كل أسرارها إذا لم تمسك لسانها.

شعرت بالارتياح لأنها كانت تكافح في سبيل إنشاء حياة لنفسها، وابعاد نفسها عنه وتدمير كل ما كان يستنزف منها. سارت ببطء إلى الكرسي الذي كانت تركته، ثم جلست عليها. وهي تدير رأسها نحوه وقد أسبغت الجمود على ملامحها بعناية تامة، ثم قالت: «حسناً؟ هل توافق؟»

ألقى عليها نظرة باردة ساخرة، ثم جذب مقعداً خشبياً قاسياً من جانب المدفأة فجلس عليه. كل ذلك قبل أن يقول لها بسخرية: «يبدو أننا وصلنا إلى قلب المسألة. كان عليك أن تكوني صريحة بالنسبة لهذا من قبل. أترينني طاغية إلى هذا الحد؟» وهز كتفيه بعدم اكتراث دلها على أنها سواء اعتبرته طاغية أم لا، فإن هذا لا يهمه بأي شكل.

ثم بدت على شفتيه ابتسامة خالية من السرور وهو

يقول: «إذن، فأنت تريدين الطيران. فقد كنت متعطشة إلى نوع من الحرية خارج رباط الزوجية ما جعلك تفكرين في رفع دعوى انفصال وذلك لكي تبسطي جناحيك. ويبدو أن زواجنا لم يكن كافياً لاثبات ذاتك.» أخذ ينظر إليها متفحصاً بنظرات جعلتها ترتجف في داخلها إذ كانت واثقة من أن بإمكانه أن يكتشف ما وراء هدوئها الظاهري من تعاسة في داخلها.

عضت شفتها تمنع بذلك الكلمات اللاذعة التي تدينه بمرارة والتي تزاحمت على شفتيها. كيف يمكنها الآن أن توضح له أن الحديث الذي كان يعلم أنها سمعته يدور بينه وبين زانا هو السبب الذي جعلها تهجر حياتها الزوجية؟

كيف يمكنها ذلك وهي التي كانت صممت البدء بالهجران أولاً، لكي تجعله يعتقد، وذلك لأجل حفظ كرامتها، بأنها قررت الانفصال لأنها لم تعد تريد المزيد من الاذلال عندما يطلب منها الطلاق لكي يصبح حراً في الزواج من والدة ابنه؟

لقد فسدت خطتها بالنسبة لهذا الأمر، وتباً لها إذا كانت ستدعه يعلم الحقيقة الآن.

وقال: «لقد وضع حملك، بالطبع النهاية لكل هذا. وعلى كل حال، فأنا موافق على شروطك.»

تساءلت بلهجة لاذعة، عما إذا كان عليها أن تنحني احتراماً؟ وحاولت أن تشعر نفسها بالكراهية له، ذلك لأن شرطها التالي والذي يتطلب موافقته، هو أكثر قسوة.

كان الغروب يلقي بعتمته الآن، وأشجار الغابة تطرد آخر أشعة الشمس الغاربة، ملقية بظلال خضراء جعلت تلك الغرفة الصغيرة أشبه بالكهف، وإذ وقف تشارلس لكي ينير أحد

المصباحين، قالت بسرعة قبل أن يفارقها تصميمها الذي كان قد أخذ يتراجع: «هنالك شرط أخير، وهو انني أريد أن يكون لدينا غرفتان منفصلتان. لا أريد أن أكون معك في غرفة واحدة.» رأته يجمد في مكانه وقد اكتسى وجهه قسوة في ذلك الضوء البرتقالي للمصباح.

كانت العنيان اللتان استدارتا إليها، عميقتين غامضتين في الظلال التي تحيط بهما، توتر فمه بقسوة، ولكن صوته كان عفوياً إلى حد السأم وهو يقول لها: «إنك تدهشينني.»

لكن كان عليها أن تفرض هذا الشرط، فقد تكون علاقتهما الزوجية كل ما تتوق هي إليه، ولكنها بالنسبة إليه هو،لم تكن تعني شيئاً. والسماح له بمشاركتها الغرفة لن يفعل سوى جعلها تشعر بالحقارة، ويزيد من ابتعادها عنه.

«إنني متعبة.» قالت ذلك وقد شحب وجهها لاعترافها الأحمق بأنها حامل، ومن جهدها البالغ وهي تضع شروطها التي تمكنها من الاحتفاظ بكرامتها.

وقفت وهي تدفع خصلات شعرها الأسود عن جبينها، قالت وهي تشير إلى الأريكة التي عليه أن ينام عليها هذه الليلة: «إذا لم تشأ أن تعاني من قساوة الأريكة، هذه الليلة أيضاً، فأنا أريدها.» كانت تريد بذلك أن توضح له بأن اصرارها على الانفصال عن بعضهما البعض في مشاركة الغرفة قد ابتدأ الآن. رفع هو حاجبه الأسود المستقيم ساخراً.

ثم قال: «إن الزهو يتملكني إذ أعلم أن هناك شيئاً في حياتنا تريدينه أنت. سأحاول أنا الاكتفاء بها، وخذي أنت السرير.»

ثم، وقبل أن تغدرها دموعها، استدارت نحو السلم، ولكن صوته البارد، أوقفها جاعلاً إياها تتجمد مكانها من الاشمئزاز إذ يقول: «هنالك شيء واحد، يا زوجتي العزيزة، قبل أن نبتدىء المستقبل الذي اخترته أنت، وهذا الشيء هو أنني أريد أن أتأكد من أن الطفل الذي أنت حامل به هو مني أنا وليس من تمبليتون.»

www.elromancia.com

الفصل التاسع

مضت لحظة كانت بيث فيها من الذهول والغضب بحيث لم تستطع الحراك. كان قلبها يخفق بشدة، بينما موجة من الغضب العارم اجتاحت نفسها بثورة عنيفة لم تشعر بمثلها في حياتها من قبل.

كيف تجرأ؟

استدارت نحوه بسرعة، ودون إدراك منها لما تقوم به، رفعت يدها ثم انهالت بصفعة على فمه وذلك بكل ما لديها من قوة.

تجاوب صدى الصفعة في سكون الغرفة ما منحها شعوراً مؤقتاً بالرضى، ولكنه غير كافٍ للتنفيس عما تشعر به من غضب كان يغلي في داخلها.

لم تطرف عين تشارلس، عدا ومضة خاطفة من شيء بدا، ويا للغرابة، أشبه بالفوز، سرعان ما تبددت تاركة عينيه كالحجر جموداً لا تعبران عن شيء وكأنها لم تصفعه بكل قوتها أو حتى تلمسه، ورفعت يدها مرة أخرى تريد أن تسدد إليه صفعة أخرى، وأخرى... إلى أن يتبدد غضبها واشمئزازها من قوله.

لكنه، حتى دون أن تبدو منه حركة، كان قد قبض على معصمها بإحدى يديه وقد بدا أثر الصفعة على وجهه.

«مسموح للزوجة بأن تصفع زوجها مرة واحدة في حياتها. وهكذا لم يعد لديك الحق في ذلك. حاولي مرة أخرى فأعيد إليك الضربة.»

ثم ترك يدها متراجعاً إلى الخلف وكأنه لم يعد يطيق القرب منها، وقد أحال الغضب لون عينيه إلى السواد ما أدركت منه أنه يعني ما يقول.

رفعت رأسها وقد بدا التحدي في عينيها الخضراوين وقد ازداد خفقان قلبها وهي تدرك كيف أنها كانت سترحب تقريباً بضربه لها، حيث أن ذلك على الأقل، سيكون أفضل من نظراته الباردة الساخرة تلك والتي يرمقها بها، والتهكم الخفيف الذي كان يوجهه إليها وهما يتحدثان عن مستقبل زواجهما. هذه الفكرة، أكثر من أي شيء آخر، جعلتها تتراجع وقد فقدت لذة المواجهة. لقد شعرت بالاشمئزاز من نفسها. دوماً كانت تشعر بالاشمئزاز من العنف، كما كانت تعرف عنه هذا أيضاً.

ثم قال لها بتهكم جعلها ترتجف: «أفهم من ردة الفعل لديك هذه أنك لست حاملاً منه، وعليك أن تصفحي عني طرحي ذلك السؤال عليك، ولكنني سمعته يعرض عليك الزواج وهذا قد يعني أنك شجعته على ذلك.»

أشاحت بيث بوجهها عنه، وهي تبذل طاقتها العقلية والبدنية في سبيل صعود السلم واللجوء إلى غرفتها وذلك قبل أن تنهار كلياً. تمكنت أخيراً من ذلك، فاستلقت على سريرها قسماً كبيراً من الليل مستيقظة، وهي تتساءل كيف ستتمكن من التعامل معه بقية حياتها.

• • •

تنهدت مولي غارنر، والدة بيث، بسرور بالغ وهي تقول: «آه، ما أجمل العودة إلى البيت.» ثم تناولت فنجان الشاي

من على المائدة لتعود بعد ذلك إلى كرسيها المريح، حيث أخذت ترشفه على مهل، وهي تتابع قائلة: «في كل البلاد التي زرتها، لم أستطع أن أحصل على كوب شاي جيد. أنا لا أعني أننا لم نمض وقتاً جميلاً، بالطبع، ولكن...»

فقالت بيث وهي تجمع صور رحلة والديها بينما ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة فيها شيء من المكر: «من الجميل أن يعود المرء إلى بيته.»

لأول مرة منذ أسابيع، تشعر بيث بقلبها يمتلىء بالرضى. قالت وهي تعني ما تقول أكثر مما تتصوره والدتها: «ما أجمل أن تعودا يا والدتي، لقد اشتقت إليكما كثيراً.»

ذلك أنها أثناء تلك الأسابيع القليلة التي مضت منذ عودتها إلى بيتها ساوث بارك شعرت بيث بالوحدة والوحشة بشكل لم تعرفه في حياتها. صحيح أن أليسون قد رحبت بعودتها للعمل معها، بسرور وانشغلتا بالإجراءات القانونية ومستقبل العمل، واحالة مكتب صغير موجود خلف مكتبة البيت الفخمة، احالته إلى مكتب لها، وضعتا فيه جهاز كمبيوتر وخزانة للملفات وما أشبه.

لكن لا شيء، حتى ولا العودة إلى العمل مرة أخرى، أمكن أن ينسيها زواجها ذاك. ارتجفت بشكل لا إرادي، فقالت لها والدتها: «أتشعرين بالبرد، يا حبيبتي؟ هل أغلق النافذة؟»

«كلا أنا بخير، إنما هو الشوق إليكما.»

ابتسمت لوالدتها التي كانت تحاول الجلوس، بمزيد من الراحة، وقالت هذه ساخرة: «جميل منك أن تقولي هذا، ولكن لم يكن لديك وقت تشتاقين فيه إلينا حيث أنك كنت تركضين هنا وهناك. لقد ذهبت إلى فرنسا، أليس كذلك؟»

لم يكن قد مضى على وصول والديها أكثر من خمس دقائق عندما أخذت الأقاويل مأخذها. فلا شيء يبقى سراً في هذا المجتمع المحدود. وهكذا لم يكن أمام بيث إلا أن تنطق بالحقيقة: «ذهبت إلى قرب بولوني. كان تشارلس يغيب أكثر الأيام، في ذلك الحين، وكان لأليسون عميل لم تستطع أن تنجز أمره، وهو عمل لفترة قصيرة مؤقتة فقط. وهكذا تقدمت أنا لهذا العمل. وقد استطاع تشارلس القيام بزيارتي إلى هناك مرتين.»

أجابت الوالدة: «حسناً، من الطبيعي أن يكون قام بذلك، وإلا لما كان الشوق يتملكني الآن لرؤية حفيدي المنتظر.»

رسمت بيث على شفتيها ابتسامة مرتجفة، ولكنها، في داخلها كانت تتنهد بارتياح. لقد عادت الآن متظاهرة بأنها زوجة تشارلس، وإذا ما عرفت والدتها يوماً ما، بأنها تفعل ذلك فقط لأنه هددها برفع دعوى وصاية على طفلهما مع كل ما ستثيره مثل هذه الدعوى القضائية من تشهير، حيث تثور الشكوك حول صلاحية ابنتها لتربية طفل... وطبعاً ما يصحبه أيضاً من حكايات مشبوهة عن زيارتها المؤقتة إلى فرنسا لتعمل مع رجل انتهى أمره معها بعرض الزواج عليها... لو عرفت والدتها ذلك لتملكها أكثر من مجرد الرعب.

منذ البداية، كانت والدتها ضد هذا الزواج ليس لأن تشارلس سافيج كان أعلى مستوى من ثروة ومركز اجتماعي فالأم ليست قديمة الطراز إلى هذا الحد. ولكن بسبب زانا. وقبل الزواج بأسبوع واحد فقط.

قالت لها والدتها بقلق: «هل فكرت حقاً في ما أنت مقدمة

عليه، يا حبيبتي؟ أنا لا أريد أن أفسد عليك فرحتك بهذا الزواج، ولكنني أيضاً لا أريد أن أراك تعيسة. ألا ترين أنه تسرع في الزواج؟ قد يكون زواجه منك هو ردة فعل إنك تعلمين ما أعني. فهل سبق وفكرت في هذا؟ ليس ثمة من لم يكن يلاحظ كيف كان أمره مع تلك المرأة، زانا هول.»

ولكن بيث رفضت، حينذاك، التفكير في ذلك، أو لعلها فكرت فقط، في ان بامكانها ان تعلمه بحبها الكبير له، ان يحبها بنفس المقدار، هذا رغم انها لم تسمع منه اي كلمة حب. كان ذلك منها قمة الحماقة، وهكذا الآن، كلما كانت معرفة امها عن وضعهما الحالي أقل، كان ذلك افضل.

كانت أمها تقول الآن: «ان هذا الخبر منك هو افضل هدية اتلقاها عند عودتي.

ان علي ان اشتري الكثير من ملابس الاطفال. اجفلت بيث في داخلها اترى امها قد نسيت حقاً ثياب الأطفال تلك التي كانت اشترتها لأجل الطفل الذي كانت فقدته.

لم يأت أحد قط على ذكر ذلك الحادث وما تبعته من مأساة مفجعة ويبدو انهم ظنوا ان عدم الاتيان على ذكر ذلك، كان يعني انه لم يحدث.

انحنت الأم تعيد سكب فنجانين من الشاي وهي تقول: «وقد سمعت ايضاً ان تلك المرأة عادت إلى بيتكما ساوث بارك. لامعة متألقة كعادتها، ومعها ابنها البالغ من العمر سنتين.»

قالت بيث مبدية عدم الاكتراث: «إنني لم أرها كثيراً. فقد كان بيتنا ممتلئاً ضيوفاً أثناء تلك العطلة الأسبوعية وكنت أنا سأسافر إلى فرنسا مباشرة بعد ذلك.»

لا شك أن والدتها الآن ستذكر لها ما يقولونه من أن هاري الصغير يشبه تشارلس سافيج كثيراً، ولم تكن بيث تعرف تماماً كيف ستدور حول ذلك الموضوع. لكن لحسن الحظ، دخل والدها إلى الغرفة ليتهالك على الأريكة بجانب بيث وهو يتخلل شعره الخفيف بأصابعه قائلاً: «هل بقي شاي في الابريق؟ سرعان ما سيبتدىء فصل الخريف ويمكنني أن أبدأ في غرس الحديقة. إنني أعرف فائدة التريض بالنسبة إليّ، ولكن...»

قاطعته زوجته وهي تناوله فنجان شاي: «ولكنك ستمضي ليالي الشتاء قارئاً المجلات الزراعية، ومصمماً حدوداً جديدة للحديقة ومرسلاً بطلب النباتات، ومتلهفاً للبدء بالعمل مرة أخرى، أتعلمين يا بيث أنه دفع لجوين هيغس ملبغاً كبيراً لكي يرعى الحديقة في غيابنا؟ وما أن ألقى بالحقائب في المطبخ حتى كان قد اندفع خارجاً إليها، حيث أخذ يشذب النباتات والأعشاب على الحواجز...»

أثناء الضحكات التي تعالت، نهضت بيث واقفة وهي تسوي من تنورتها، معتذرة بقولها: «لقد كان تشارلس غائباً الليلة الماضية، ولكنه قال إنه سيعود في وقت تناول الشاي. فيجب عليّ أن أسرع لكي أكون في استقباله.»

كانت وزوجها، يحافظان على المظاهر حتى بين بعضهما البعض. ويعاملان بعضهما بكل أدب وكأنهما غريبان. لقد أصبح عمله من داخل البيت، الآن أكثر من السابق. ولكن كان عليه أن يذهب إلى المدينة في فترات متقاربة حيث يمضي ليلة. وكانت تحافظ دوماً على أن تكون موجودة عندما يعود. حيث تخرج من مكتبها في

الوقت المناسب، فتسوّي من شأنها وتستعد لالقاء تحية مهذبة عليه، ثم القاء أسئلة مصطنعة مفرطة في الرسمية عن رحلته، ثم تقدم إليه شيئاً يشربه للترويح عن نفسه، ثم تحدثه ببعض أخبار المنطقة التي تظنها ذات أهمية له.

هكذا لن يكون بإمكان أحد أن يتهمها بعدم تنفيذ ما اتفقا عليه.

قال لها والدها وهو يسير معها نحو الباب: «حسناً، لا تسرعي في القيادة.»

لقد أوشك والداها على الاتيان على ذكر ذلك الحادث الذي سبب لها الاجهاض، وذلك بعيداً عن مشاعر العطف، ما جعلها تتساءل بعد فوات الأوان، عما إذا كان مثل ذلك الانفتاح كان سيساعدها أثناء تلك الشهور الطويلة التعيسة التي تلت ذلك.

هذا مؤكد لو كان تشارلس قد تمكن من حمل نفسه على القول بأن شعوره العميق بالذنب هو الذي جعله يبتعد عنها، في ذلك الحين، إذن لكانت الأمور أفضل ولكان تقاربهما ازداد عوضاً عن التباعد ذاك. خصوصاً إذا كانت قد كشفت له عن عمق شعورها بخيبة الأمل وشعورها المريع بعدم الكفاءة والذي عانته بعد أن علمت بأنها قد لا تنجب بعد ذلك أبداً.

لكن أي تقارب كان يمكن أن يكون حدث بينهما، في ذلك الحين، كان سيذهب هباء وذلك منذ اللحظة التي عادت فيها زانا مع هاري، أخذت تذكر نفسها بذلك، بجفاء وهي تجلس وراء عجلة القيادة في سيارتها. لقد انتهى الماضي، وكل ما كان سيحدث في العالم ما كان سيغير الذي حصل.

فتحت النافذة وهي ترسم ابتسامة على شفتيها ثم أخذت تلوّح بيدها لوالديها وهي تناديهما بمرح: «العشاء عندنا غداً. لا تنسيا... الساعة السابعة تماماً. وأحضرا معكما صور الرحلة، فإن تشارلس لا يحب أن يفوته التفرج عليها.»

ثم سارت بالسيارة ببطء بعد أن غشت عينيها دموع مفاجئة. سيمضي وقت طويل قبل أن تعوّد نفسها على مثل هذه الحياة.

• • •

شغلت نفسها كثيراً بالضيوف، وأغرقت نفسها بالعمل في الوكالة، وتعمدت أن تبدو دوماً مشرقة الوجه، وعندما كان والداها يبديان قلقاً بالنسبة إلى شحوب وجهها والهالات الداكنة حول عينها، كانت تخبرهم بصدق، بأنها في رعاية أفضل طبيب في المنطقة... وذلك تبعاً لاصرار تشارلس، وذلك الطبيب أعلن رضاءه عن حالتها وأن صحتها جيدة تماماً.

عندما تكون هي وتشارلس معاً، وكان هذا نادراً ما يحصل، كانت ترفع نظراتها أحياناً فتجده يراقبها، وللحظة واحدة تتشابك نظراتهما تلك. فكانت ترى في عينيه شيئاً لم تكن تفهمه، شيئاً غامضاً وراء ستار من الاستياء، لم تستطع فهمه، كما تخلت مع الوقت، عن محاولة ذلك.

كان له أن يكره وجودها، ووضعها كزوجة له بالاسم فقط. إنهما هما الاثنين، يعرفان أنه كان يرغب في طلاقها لكي يستطيع الزواج من المرأة التي يحب. كما أنهما، هما الاثنين يعلمان أنها موجودة هنا فقط لأنها حامل بولده، ولأن زانا قد هجرته مرة أخرى.

كان قلبه مليئاً بحب تلك المرأة، وسيبقى كذلك على الدوام. وفي كل مرة ينظر فيها إلى بيث، لا بد أنه يشعر بالأسى لأنها ليست زانا.

كان يعتبرها أفضل زوجة بعد زانا، وكانت تعلم ذلك. ولكنها كانت تعوّد نفسها القبول بهذا الوضع. وأن تستعمل كل قدرتها في خدمة تطوير عملها والنهوض به. متعلمة ببطء وألم كيف تشيّد جداراً حول قلبها لا يمكن اختراقه.

جاء العيد انتهى وهنأت بيث نفسها لتمكنها من التصرف اثناءه بشكل جيد جداً، فقد نشرت الزينة في أنحاء المنزل الكبير بوفرة وسخاء.

قطب تشارلس حاجبيه وهو يتفحص قائمة الضيوف التي طلب الاطلاع عليها، ولكنها تجاهلت ما بدا عليه من عدم الرضى، إذ كانت تعلم أن لديه ما يكفي من قوة الاعصاب لكي يكون مضيفاً ممتازاً، ذلك أنها أرادت أن تملأ المنزل ضيوفاً لكي تتحاشى أن تكون وحدها معه أثناء ما يفترض أن يكون اجتماعاً عائلياً سعيداً.

لكنها كانت تعلم أنها تعوّد نفسها على العيش مع تصرفاته المهذبة الممزوجة بالسخرية منها وأن تقابلها بمثلها، وأن لا تهتم بكل هذا. وعندما قال لها: «لا أريد المزيد من الحفلات والضيوف، عدا عن ذلك حضور والديك للعشاء.» عند ذلك أحنت رأسها بخضوع ثم عادت إلى عملها.

كان قد دخل إلى مكتبها، وكان هذا شيئاً غير عادي، وكذلك تدخله في حياتهما الاجتماعية، دخل وهو يقول: «إنك ترهقين نفسك، فإذا لم تكوني تهتمين بصحتك، فيجب أن تفكري بالطفل، عليك أن تحصري اهتمامك بذلك من الآن

فصاعداً، وإذا لم تفعلي فسأرغمك على ذلك.» ثم غادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه بعنف.

كانت تعلم جيداً أن الولد الذي تحمله في أحشائها هو اهتمامه الوحيد. وهو السبب الوحيد لوجودها هنا، ولكنها لم تشعر بالاستياء. لم تستطع أن تتمنى لو أنها لم تحمل بهذا الطفل. فقد كان هو كل ما عليها أن تعيش لأجله الآن.

إنها لم تمتعض في الواقع من اعتراض تشارلس هذا. فقد كانت تزداد ثقلاً وبطئاً كل يوم، وحدثها وضعها بأن الوقت قد حان لكي تهدأ وأن استضافة الأصدقاء بهذه الكثرة قد أصبح مصدر ارهاق لها واستنزاف لقواها.

لكن ذلك لم يكن يعني أنه سيرضيها البقاء أغلب أوقاتها وحدها مع تشارلس.

كانت تعلم، من المرارة التي كانت تلحظها في أعماق عينيها عندما كانت تنظر في المرآة، أنها قد أصبحت على وشك القبول بحياتها هذه.

فإذا ما انفردت به، ما يدريها أن بقية من مشاعر ما زالت في نفسها، لن تعيد إليها الآلام وكل ما يتعلق بالحب المنسي؟ إنها ببساطة لا تثق بنفسها تماماً لكي تخاطر بهذا.

وهكذا ما اشتدت عواصف شهر كانون الثاني (يناير)، حتى استنبطت أساليب أخرى لابعاد نفسها.

لقد كانت والدتها غاية في السعادة وابنتها تقترح عليها قضاء أسبوع في لندن لشراء ملابس جديدة للحمل، ومع هذا فقد قالت: «طبعاً أنت لست بحاجة إلى أثواب كثيرة، إذ لم يبق أمامك سوى شهرين أو نحو ذلك... وقد كنت أنا بعد ولادتي لك، قد سارعت في التخلص من ثيابي الفظيعة تلك،

ولكنني ما لبثت أن شعرت بالندم إذ فكرت في أنني ربما كنت سأحتاج إليها، ذلك لأننا كنا نتمنى أن يكون لك شقيق أو شقيقة، ولكن قد يكون لديكما أنت وتشارلس، حظ في إنجاب الكثير من الأطفال، فمنزلكما ينبغي أن يمتلىء، ألا تظنين ذلك؟»

أغمضت بيث عينيها إزاء سؤال والدتها المؤلم هذا... فالطفل الذي تحمله سيكون وحيداً، وزواجها من تشارلس هو بالاسم فقط وتقاربهما قد أصبح شيئاً من الماضي وهو سرّها المرّ. وغرف ساوت بارك الفارغة ستبقى فارغة.

مع ذلك، فقد رفعت رأسها تحدياً، لقد كانت هي نفسها ابنة وحيدة لوالديها، ولكنها لم تشعر بأي حرمان أو وحدة، فقد كان لديها دوماً أصدقاء كثيرون في القرية والمدرسة، وهي ستحرص على أن يكون لابنها كذلك أيضاً.

طبعاً، امتد الأسبوع في لندن إلى اثنين. فقد كان هناك معارض كثيرة أرادت بيث أن تراها. قائلة لوالدتها: «من المؤسف أن لا نمتع نفسينا ما دمنا هنا. لا أظنك قلقة بشأن والدي، أليس كذلك؟»

أجابت والدتها باسمة: «كلا بالطبع، فهو يعرف جيداً كيف يتصرف وحده، وربما يستمتع بالهدوء الآن لأنه دوماً يتهمني بالثرثرة، كلا يا بيث. فأنا قلقة بشأنك أنت، هل كل شيء على ما يرام بينك وبين زوجك؟»

أجابت بيث بسرعة: «طبعاً.» لقد كان خلف ثرثرة والدتها التافهة، عقلاً ثاقب البصيرة. وكانت دوماً شديدة الرعاية لابنتها الوحيدة، وتابعت بيث قائلة: «ما الذي جعلك تلقين هذا السؤال؟»

«لأنني أراك تغيّرت. فهناك حزن في عينيك يجعلني أحياناً أريد أن أبكي.»

جاهدت في أن تجيب بشيء من المرح: «يا للبلاهة.» وأرغمت نفسها على الابتسام.

الحزن؟ هل حقاً يبدو عليها نتيجة معاناتها تلك، بهذا الموضوع؟ هل تنطق عيناها بشيء لا يعترف به عقلها؟ هل ما زال أمامها الطريق طويلاً لكي تتمكن من استئصال حبها هذا السيء الحظ من قلبها؟ ولم تستطع احتمال التفكير في هذا، وهكذا ابتسمت أخيراً لوالدتها المنزعجة وهي تقول: «إنك تتصورين أشياء لا وجود لها، إن أمامك امرأة تعاني من وجع الظهر وحريق في المعدة وتورم في الكاحلين. والآن ماذا علينا أن نفعل هذا النهار؟ هل نذهب إلى المعرض الفيكتوري للمجوهرات؟ أم نعود إلى محلات هارودز لنلقي نظرة على ذلك الطقم الذي كدت أقنعك بأن تشتريه يوم الاربعاء الماضي؟»

لكنها لم تستطع الغياب عن بيتها لوقت طويل، وطبعاً لم يشر تشارلس إلى أنه قد افتقدها. ولكن لماذا يفعل ذلك؟ فقد كفّا عن الادعاء والتظاهر منذ انكشف شعوره نحو زانا.

هذا إلى أن لديها الكثير مما يشغلها. فعندها عذر هو عملها في الوكالة، وهكذا أصبح بمقدورها إغلاق باب المكتب عليها كل يوم، لا تخرج منه إلا لتشارك تشارلس العشاء بصمت وسرعة ومن ثم تصعد إلى غرفتها مباشرة بدعوى التعب.

لم يكن ذلك ادعاء، طبعاً فقد كانت متعبة حقاً. ولكن عقلها لم يكن يسمح لها بالتماس الراحة. وذات ليلة من ليالي آذار (مارس) أوت فيها مبكرة إلى الفراش، وكان المطر يصفع

زجاج نافذتها، تخلت عن كل الوسائل التي استعانت بها للنوم، فلفت نفسها بدثار، ثم غادرت غرفتها ذاهبة إلى غرفة الطفل بكل هدوء.

كانت قد أصرت على تجديد هذه الغرفة. ورغم أن رفع تشارلس لحاجبه دلها على أنه يظنها مجنونة، إلا أنه لم يعترض بشيء مبدياً الاستسلام لرغبة زوجته الغريبة هذه.

ذلك أن هاري كان قد نام هنا ذات ليلة ولم تكن في الحقيقة، تلوم الطفل البريء، ولكنها لم تستطع أن تنسى كيف رأت والديه يحومان حوله وهو نائم في السرير الذي كانت وزوجها قد ابتاعاه بكل بهجة لأجل طفلهما الذي فقدته.

حتى حالياً، إذا سمحت لذكرياتها التي حاولت جاهدة، أن تنساها، باستعادة صورة زانا وتشارلس يمسك بها، وسماع تلك الكلمات المليئة بالمشاعر والتي ترحب بحماس بالطفل الذي أحضرته إليه...

جالت في أنحاء الغرفة تتلمس الأشياء وما لبثت أن وجدت نفسها بحاجة ماسة إلى الجلوس والاسترخاء على حافة السرير الذي كانت طلبت وضعه في الغرفة. فهي ستنام هنا في الشهور الأوائل من حياة ابنها لأنها كانت مصممة على البقاء معه، ولم تكن تريد أن تطلب من تشارلس أن يخلي لها غرفته.

تصورته الآن وهو ينام متكوماً في سريره الواسع الضخم، فشعرت بالأسى وهي ترى نفسها تحاول الاسترخاء هنا وهناك، ثم ترنحت واقفة.

كانت مدبرة المنزل قد أصرّت على احضار صرر ثياب

الطفل التي كانت بيث قد أنفقت مبالغ طائلة لشرائها من لندن، قائلة بأن هنا من الملابس ما يكفي لجيش من الأطفال، ثم وضعتها على الرفوف البعيدة العالية.

كان قد مضى على الملابس هنا أسابيع الآن، وهي بحاجة إلى الفرز والوضع على الرفوف المناسبة ولكن بيث، حتى وهي تقف على أطراف أصابعها لم تستطع أن تطولها تماماً. وإذ لم تشأ أن تتخلى عن المحاولة، رأت كرسياً هناك فذهبت إليه تجره على الأرض إلى حيث صعدت عليه. وما أن مدت يدها إلى صرر الثياب، وعلب الأطفال حتى سمعت ما أشعرها بأنها ليست وحدها في الغرفة، وهو شتيمة خشنة تبعها التفاف ذراعي رجل حولها، بينما هدر صوت كلسع السوط وهو ينزلها برفق من على الكرسي إلى الأرض.

استدارت إليه تنظر إلى كل تعابير وجهه بينما أخذ قلبها يخفق بعنف.

«حسناً؟» قال لها ذلك وعيناه في عينيها ما جعلها تخفض أهدابها الكثيفة بسرعة كيلا يرى فيهما التأثير الذي ما زال له عليها.

أخيراً، قالت: «ما زلت لم أفرز بعد ثياب الطفل التي اشتريتها من لندن.» كان عليها أن تبقى هادئة، فهذا ليس وقت اظهار الجفاء، ولكن بعد أشهر من التزام المقاطعة في الحديث إلا فيما ندر وبلهجة مغلفة بشيء من التهكم أو بما هو أسوأ من ذلك، ألا وهو السأم المؤدب، كان غضبه المفاجيء هذا ينبيء بمشاعر حقيقية، ما جعلها تمتلىء خوفاً ولا تدري ما تفعل.

«وهكذا قررت، بعد أسابيع، أن تقومي بذلك الآن، وفي هذا الوقت من الليل. أما كان بإمكانك الانتظار إلى أن تطلبي من أحد أن ينزل لك هذه الأشياء إلى الأرض؟»

كان قد تركها الآن، بينما تراجعت هي إلى الخلف بعيداً عن جاذبيته القوية، وإذا بها تصطدم بظهر كرسي ما جعلها تعبس وهي تقول بضجر: «لم أستطع أن أنام.» وساءلت نفسها بتوتر عما إذا كان من الضروري أن تبدو أمامه بهذا الشكل من الانهاك والانفعال. ولماذا تضايقت فجأة من تضخم جسمها وعدم تناسبه وهي ترغم نفسها على الوقوف على الكرسي؟

فقال بشبه ابتسامة: «ولا أنا استطعت ذلك، وهذا ما جعلني أسمعك تخبطين في السير هنا وهناك.»

تتخبط؟ عضت شفتها لاختياره هذه الكلمة، كان يمكنه أيضاً أن يكمل كلامه ويقول لها انها تبدو وتتحرك كحوت خارج من البحر.

استدارت مبتعدة شاعرة بالغضب من نفسها، ماذا يهم ذلك؟ فالنساء في مثل حالتها يجب أن لا يهتمن بمظهرهن غير الجذاب، واهتمامها بوصفه لها بأنها تتخبط، هو حتماً شيء غير طبيعي، خصوصاً وهو لم يحبها يوماً، ولكنه كان يعيش معها لأنها فقط زوجته وموجودة في بيته.

وإذا به يقول بصوت لم تسمع منه بمثل رقته منذ هجرته إلى فرنسا: «بما انه ليس بإمكاننا أن ننام، لماذا لا نقوم بالعمل معاً؟» وضع يده على كتفها برفق يدفعها بذلك إلى الجلوس على كرسي، ثم يستدير بسرعة ليتناول كومة الصرر من الرف العلوي وهو يقول: «افتحيها ثم أخبريني أين أضعها.»

لقد عاد الآن إلى صوته ذلك الدفء والرقة القديمان واللذان كانت نسيتهما تقريباً، وكذلك إلى عينيه الرماديتين القاتمتين واللتين كانتا توجهان إليها نظرة متفهمة. فجلست ثم أخذت تتساءل عن السهولة التي أحدث بها هذه الفجوة في الجدار الذي كانت أحكمت بناءه حول نفسها.

لكنها أقنعت نفسها بأنها فجوة صغيرة فقط لا ينبغي أن تسمح لها بخرق دفاعاتها. وهكذا قالت بلهجة تحوي مقداراً مناسباً من الاستخفاف لا يصل إلى حد التجريح: «ليس ثمة حاجة بك حقاً لإزعاج نفسك.»

ألقى عليها نظرة سريعة من تحت حاجبيه، ثم أجاب: «إزعاج نفسي؟ ولكنني أريد أن اعتاد على خزانة ثياب ابني.»

رأت هذه محاولة منه لإثارة استياء داخلي فيها لم يكن موجوداً في الحقيقة. لقد أخذت تشعر بالتوتر في داخلها يتلاشى ببطء، ما جعلها تتخلى عن الحذر وينعدم اهتمامها.

في الواقع، وجدت نفسها تستمتع بفتح لفائف الثياب الصغيرة هذه، وملامسة الصوف الناعم بأصابعها والشرائط الحريرية، منفجرة في الضحك وهو يحمل بإصبعه حذاء بالغ الضآلة وعلى وجهه حيرة الرجل: «لا يمكن أن يكون هناك شيء من الصغر بحيث يناسب هذا.»

«معك حق.»

إنها ستندم غداً على تخليها عن هذا التحفظ معه في الحديث، ولكنها حالياً كانت تريد أن تسمح لنفسها بالإنطلاق، بالاستمتاع بهذا التقارب الذي كان في ازدياد منذ أكثر من نصف ساعة، وهكذا تابعت تقول: «إن رفسه

ينبيء بأنه يلبس حذاء لاعب الفوتبول.» ثم أجفلت وكأنها في هذه اللحظة أحست بما يثبت قولها.

«ما هذا يا بيث؟» كان تشارلس بجانبها مقطباً جبينه، وهو يسألها آخذاً يدها بين يديه: «هل تشعرين بألم؟»

رأت بيث، وقد تملكها الذهول، انه من المحيّر أن الاهتمام قد بدا عليه حقاً، لقد ارتد في ظرف نصف ساعة، إلى ذلك الرجل الدافىء المحب الذي كان زوجها البالغ الاهتمام بها قبل الحادث... قبل عودة زانا. أصابها هذا بالتوتر ولم تعرف كيف تواجه هذا الأمر، لقد كانت واثقة من أنها تخلصت أخيراً من كل حبها اليائس له، ولكن...

هزت رأسها فتماوجت خصلات شعرها الناعم الطويل حول وجهها المتوهج احمراراً، وهي تقول: «كلا، وإنما هو يلعب الفوتبول، كما أظن.»

بدا الارتياح على ملامحه القلقة ولكن تردداً بدا في عينيه كان جديداً عليها وهو يقول: «أحب أن أتحسس حركات طفلنا. هل تمانعين؟»

كما كانت تعلم، كان دوماً ينال ما يريد. وفي هذه اللحظة كانت ترى ناحية منه لم تكن تعرفها من قبل. وبرفق، أمسكت يده ووضعتها على قمة بطنها وإذا بنظرة العجب وعدم التصديق التي بدت في عينيه عندما سدّد الطفل رفسة إلى كفه، تبعث الدموع في عينيها.

مضت لحظة طويلة عليهما في هذا الوضع وعيناه في عينيها، ثم إذا بقلبها يخفق بعنف وهو يقول لها بهدوء: «إنك رائعة الجمال، يا بيث لم أرك من قبل أجمل مما أنت عليه الآن.» وسرعان ما مرت هذه اللحظة وهو يقول ضاحكاً:

«ها هو يرفس مرة أخرى، لا عجب في عدم استطاعتك النوم ما دام يفعل هذا طوال الليل.» ثم أزاح يده ورفع ذقنها بأصابعه لينظر في عينيها، قائلاً: «أخبريني. إننا لا نفتأ نقول عنه باعتباره ولداً، فهل سيخيب أملك إذا كان ابنة؟»

هزت رأسها شاعرة بشبه دوار، هذا هو نوع التقارب الذي كان بينهما ونبذته هي من حياتهما الزوجية... وذلك لأجل كرامتها، سلامتها العقلية. لكنها ها قد عادت تستمتع بذلك بضعف وحماقة، ربما حالة الحمل هذه تبعث فيها الضعف ولكنها استطاعت أن تقول بصوت أبح: «كلا، وأنت؟»

«كلا بالطبع.»

بصمت، أخذت تفكر في كلمته هذه. كلا بالطبع، لأن عنده ابن هو هاري، الآن ولكن رغم أن هذه الفكرة لم تجرحها بل نبذتها من ذهنها، إذا بقلبها يخفق وهو يشدّها من يدها ينهضها لتقف وهو يقول: «أريد أن أنام في غرفتك هذه الليلة، فقط لأشعر بك وبإبننا ولا شيء غير هذا.»

خنقت بيث غصة منعتها من الكلام، بينما امسك بيدها قائلاً: «لقد خفت وقلقت عندما رأيتك واقفة على تلك الكرسي تجولين بيديك على الرفوف. ولهذا أريد أن أطمئن هذه الليلة، وأنت بجانبي، إلى انك بخير وأمان.»

سار بها من خلال الباب المفتوح إلى غرفته رافضاً أن يستمع إلى أي اعتراض أو احتجاج منها، ثم اجلسها برفق على السرير الكبير الفخم، ثم لفّها بملاءة واسعة.

سكنت بيث إلى دفء الفراش وهي تقاوم دموعها، دافنة وجهها في الوسادة الناعمة.

لقد مضى عام الآن منذ شاركته هذه الغرفة لآخر مرة.

شعرت وكأنها عادت إلى بيتها بعد طول غياب. وانهمرت من عينيها الدموع لأنه لم يعترف من قبل بالحاجة إلى الاطمئنان عليها.

ذلك أن رؤيته لها وهي تقف متأرجحة على الكرسي في غرفة الطفل لكي تستطيع الوصول إلى صرر الثياب، قد أعاد إلى ذهنه ذكرى ذلك الحادث الذي كان تسبب في فقدان طفلهما الأول، مصحوباً بالشعور بالذنب الذي تحمّله دون موجب.

عندما شعرت به الى جانبها، وأحست بالأمان أدركت أنهما هما الاثنين، بحاجة ماسة إلى هذه الليلة من دون كل الليالي الأخرى.

فكرت، وهي تسمع تنفسه قد أصبح عميقاً منتظماً بعد أن استغرق في النوم على الفور، فكرت في أن الأمور ستعود غداً إلى حيث كانت، لأنها كانت تعلم كما يعلم هو، أن الأمور تلك التي فرقت بينهما لم تتغير.

الفصل العاشر

استيقظت بيث بسرعة، وأدركت أنها كانت وحدها في ذلك السرير الواسع. منذ شهور طويلة لم ترقد بمثل هذا العمق والسلام، ورفعت نفسها تسوّي الوسائد خلفها ثم استندت اليها.

كان وجهها يشرق بالابتسام، ولكنها عضت شفتها تمنع نفسها من الإسترسال في البهجة مؤنبة نفسها على ذلك.

لكن افكارها كانت تتدافع في عقلها دون توقف، وهكذا تركت الأمور تجري.

لقد اثبت تشارلس البارحة أنه ما زال يهتم بها، حتى ولو لم تكن هي زانا، فقد كانت زوجته، وسرعان ما ستصبح أم ولده. وقد استمدا، هما الاثنين، الراحة والاطمئنان من بعضهما البعض، رغم اشتراطها على ان يكون زواجهما بالاسم فقط.

لكن هل من الضروري أن يعودا إلى العيش بتلك الطريقة؟

كان ضوء النهار يتسلل من خلال الستائر السميكة، ولكن بيث ستبقى في السرير هذا إلى أن تقرر في ذهنها كل شيء، عليها أن تجري معه حديثاً طويلاً جاداً، إذ ربما كانت هي على خطأ في عزل نفسها عنه خلف جدار شيدته بيديها، فإذا استطاعا ان يتحدثا بصراحة عن شعوره نحو زانا، فقد يتمكنان عند ذلك من الوصول إلى تفاهم أفضل.

ربما هجر زانا له ذاك للمرة الثانية قد قتل ذلك الهاجس في نفسه نحوها، لأن هذا لو كان حصل، ولم تعد هي تعيش مهددة في كل لحظة بعودة تلك المرأة إلى حياته، لكي تأخذه منها، ربما عند ذلك لا يعود بها حاجة إلى محاولة قتل حبها له.

لقد كانت خائفة، من سؤاله من قبل، فقد كان يعرف انها كانت تعلم الحقيقة عن زانا وهاري وعن رغبته في العيش معهما، ومحاولة التعمق معه في هذا الأمر لن ينتج عنه سوى المزيد من الآلام والإذلال لها، وهي ليست من القوة والشجاعة بحيث تواجه هذا كله.

لكن تصرفه معها الليلة الماضية، بكل تلك الرقة، واعترافه بضعفه وحاجته إلى ان يستمد منها الراحة والطمأنينة، قد مدّها بشيء من الشجاعة، وهي أيضاً قد وجدت في داخلها نفس الشيء، وكذلك وجدت الشجاعة لكي تطلب منه ان يحدثها بكل شيء.

وإذا بنقرات رقيقة على الباب تنبىء بحضور السيدة بيني بصينية الإفطار، ابتسمت بيث لها وحيتها بحيوية مشرقة.

لقد كان التفاؤل يتملكها الآن اكثر من أي وقت مضى، حتى في الشهور الأولى من زواجهما عندما كانت واثقة انه بامكانها جعله يحبها. الآن، لم تكن تطلب المستحيل، وإنما فقط الوصول إلى تفاهم جديد معه، والأمل في ان يتمكنا من بناء أساس متين لحياتهما الزوجية.

«الفطور في الفراش، وعليك ان تبقي حيث انت حتى الظهر، انها أوامر السيد تشارلس.» قالت مدبرة المنزل ذلك

وهي تناول الصينية لبيث، ثم تندفع لتزيح الستائر متابعة القول: «لقد ذهب إلى المصرف وقال ان اخبرك بأنه سيعود قبل الغداء وان ترتاحي إلى ذلك الحين. في رأيي ان الوقت قد حان لذلك، تناولي فطورك الآن. بالمناسبة انا سعيدة لأن أراك قد عدت إلى غرفتك هذه، فلا تعجبني فكرة غرفتين منفصلتين للزوجين، وقد يكون هذا طرازاً شائعاً بين طبقات معينة من الناس ولكنه في رأيي شيء غير طبيعي، ولا تنسي أن تشربي عصير البرتقال هذا.»

لم تكن عينا مدبرة المنزل البراقتان تغفلان عن شيء، كما أخذت بيث تفكر وهي منهمكة في تناول طعامها، ولا بد ان هذه المرأة قد ربطت بين عودة زانا وبين اختفائها هي وما ترتب عليه بعد ذلك من ضعف علاقتها مع تشارلس.

كما ان هذه المرأة لم تحاول إخفاء استيائها وهي تعلق على شبه الطفل هاري بوالده تشارلس. فقد عاشت في هذا المنزل فترة طويلة بحيث اخذت تعتبر نفسها احد افراد الأسرة، فهي لا تخاف من التعبير عما يدور في ذهنها.

وضعت بيث الصينية جانباً، ثم نهضت من السرير، فإن تفكيرها في الماضي لن يشجع محاولتها لبناء مستقبل جديد لها مع تشارلس، انهما بحاجة إلى ان يتحدثا، إلى ان تسأله عما إذا كان يمكنها أن تثق بأن هاجسه نحو زانا قد أصبح شيئاً من الماضي، ولا يحمل خطر الإنبعاث مستقبلاً، لكي تستعد في هذه الحالة، لنسيان كل ما حدث ومحاولة جعل حياتهما الزوجية شيئاً ذا قيمة لديهما.

لقد جاهدت طويلاً لكي تكفّ عن حبه، إلى ان اعتقدت بأنها نجحت في ذلك. ولكن مرة واحدة اظهر هو فيها الحنان نحوها، وليلة واحدة أمضتها شاعرة بالأمان بجانبه، كل هذا جعلها تدرك كم كانت مخطئة في اعتقادها ذاك، وان ليس بإمكانها ان تتوقف عن حبه اكثر من تمكنها التوقف عن التنفس.

كأن الجو أراد ان يقوّي من تفاؤلها هذا، فتغير إلى يوم رائع من ايام الربيع، وإذ لم تتمكن من البقاء في الفراش للراحة حسب أوامر تشارلس، فقد وضعت معطفاً فوق ثوب الحمل الصوفي الرقيق الذي كانت اشترته من لندن ولم تكن ارتدته بعد، ثم تسللت خارجة.

كانت الريح باردة ولكنها لا تدعو إلى الاهتمام، كانت الشمس مشرقة، والسماء رائعة الزرقة، ومرصعة بغيمات بيضاء صغيرة كالقطن، كان هناك شهر آخر قبل ان تزهر الأشجار، ولكن النرجس الأصفر البري كان في كل مكان ينشر عطره متألقاً بلونه الذهبي.

فكرت في أن تمضي الوقت قبل عودة تشارلس في جمع بعض الأزهار لتزين بها مائدة غرفة الطعام، وما ان انطلقت تسير في طريق المنزل الواسع المرصوف بالحصى، حتى ظهرت من وراء المنعطف سيارة رياضية قرمزية اللون مندفعة نحوها بسرعة جعلتها تقفز، تبغي النجاة إلى جانب الطريق حيث العشب.

كان تضخم جسمها قد جعل من قفزها لتنجو بنفسها، صعباً بعض الشيء، ما اضطرها إلى الانخفاض والزحف على يديها وركبتيها، وقد توهج وجهها غضباً ومذلة وهي

تنفض عن يديها ومعطفها ما علق بهما من اعشاب مبتلة وتراب، وتدير عينين منزعجتين إلى تلك السيارة التي مرت بها بسرعة تدعو إلى الإشمئزاز.

تسمرت نظرات بيث على المرأة التي ترجّلت من السيارة بسرعة وهي تخاطبها قائلة: «كانني حطمت أرقام السرعة القياسية من مطار هيثرو إلى هنا فقط لكي أجعلك تركضين بهذا الشكل في طريق بيتك، ولكن حجم جسمك يجعل من المستحيل تقريباً أن لا تلحظك العين. ان جسمي لم يتضخم عندما كنت حاملاً بهاري.»

نظرت تلك العينان المثقلتان بالكحل، باستخفاف إلى بيث وإلى بقع العشب على مقدمة معطفها: «لا اظن ان ضرراً اصابك، أليس كذلك؟»

هزت بيث رأسها بصبر نافد، متجاهلة الألم المفاجيء في جنبها، فقد كان الألم في قلبها أكبر من أن يدع ألماً تافهاً كهذا يزعجها، ها إن زانا عادت مرة أخرى... والشيء الذي كانت تشعر بالرعب منه، قد حدث.

كانت جميلة كعادتها على الدوام، مليئة بالحيوية والإشراق... فهل بإمكان تشارلس أن يقاومها؟

أغمضت عينيها فترة قصيرة عندما أخذت زانا تسير حول السيارة، وعندما عادت ففتحتهما وجدت نفسها امامها مباشرة وهذه تمر بأصابعها خلال شعرها الأحمر.

لم يكن ثمة أثر لهاري، ولم تشأ بيث أن تسألها عنه، وكل ما استطاعت أن تقوله هو: «هيثرو؟ هل جئت بالطائرة من فرنسا؟»

لا بد أن تشارلس لم يكن يعلم بهذا، لا بد انه لم يعلم، وحدثت نفسها بعنف بأنه سيشعر بنفس الإنزعاج والهلع الذي تشعر هي نفسها به... طبعاً سيشعر بذلك.

استدارت زانا تفحص خط جوربها من الخلف وهي تجيب: «كنا في اسبانيا، لقد أمضينا هناك الأشهر الأخيرة.» وتساءلت بيث عما إذا كانت قد تركت صغيرها هناك في رعاية إحدى مؤسسات رعاية الأطفال وذلك لكي ترضي نفسيتها العديمة المسؤولية في القدوم إلى هنا لرؤية تشارلس مرة أخرى، وان ترضي غرورها مرة أخرى، بأنه مازال رهن اشارتها...

صرخت في أعماقها بصمت، بأنه ليس كذلك! كل انسان كان يعلم بأن زانا كانت هاجسه... وقد أراد مرة أن يطرد زوجته لأجلها، ولكنه الآن من قوة الذكاء والتعقل بحيث لن يسمح لنفسه بأن يعاني مرة أخرى مثل ذاك العذاب، إنه طبعاً كذلك.

لذا، عندما قالت زانا وهي ترتجف بطريقة مسرحية: «لم أعد أطيق الجو الإنكليزي القارس، ولكنني توقفت لأعيدك معي إلى البيت.»

عند ذلك رفضت قائلة وهي ترمقها بنظرات عنيفة باردة: «بل أفضل المشي، ما سبب حضورك إلى هنا؟» سألتها ذلك ساخرة وكأنها لا تعلم، وبادلتها زانا نظراتها تلك وهي تقول: «يا لك من لئيمة عديمة الشعور، لا عجب ان تشارلس... على كل حال...» وهزت كتفيها، يبدو انها غيرت رأيها في قول ما همت بقوله، ما جعل بيث تشعر بالمرارة، بينما كانت زانا تقول: «انظري إليّ وكأنني سم

إذا شئت ذلك، تماماً كما فعلت في حزيران ذاك... ولكنك ستعلمين سبب وجودي هنا حالاً.»

استدارت عائدة إلى السيارة ولكنها توقفت وهي ترى سيارة تشارلس تبرز من المنعطف ليقف فجأة.

«تشارلس... حبيبي.» هتفت زانا بذلك وهي تفتح ذراعيها وتركض نحو السيارة الواقفة، ما جعل بيث تجمد في مكانها شاعرة ببرودة الثلج، أحكمت ياقة معطفها حول عنقها وقد تصاعدت خفقات قلبها بشكل مفزع، كل شيء الآن يتوقف على نوع استجابته لها، والطريقة التي سيستقبل بها هذه المرأة التي هجرته مرتين في حياته، تاركة إياه محطماً.

رأته ينزل من سيارته، ورأت نظرة الاستفهام التي رمق زانا بها، ثم إذا بملامحه الصارمة تشرق بابتسامة سرور خالص وهو يمد ذراعيه نحوها يعانقها.

شعرت بيث بالغيرة تطعنها كالسكين، لم تستطع الوقوف إلى جانب حيث يرونها. لم تستطع ان تراهما بهذا الشكل، ولكنها لم تستطع ان تتجنب سماع صوت زانا المتهدج سروراً وهي تقول لاهثة: «لقد عدت يا عزيزي، أليس هذا رائعاً؟»

كان هذا شيئاً غير معقول... شيئاً لا يصدق، ولكنه كان يحدث مرة أخرى، ليس امام زانا إلا ان تظهر إلى الوجود وإذا بتشارلس الراشد المنضبط يصبح كتلميذ مدرسة، ولم تستطع بيث مواجهة ذلك، حاولت ان تكبح موجة من الغثيان وهي ترغم ساقيها المرتجفتين على حملها للعودة إلى البيت.

انها في أول لحظة تراه فيها بمفرده، ستصفه بما يخطر بذهنها من كلمات الاحتقار، ثم تخرج من المنزل، ليس ثمة محكمة في البلاد تحمي رجلاً في مثل سلوكه.

وصلت إلى الردهة، فأغلقت الباب خلفها ثم اخذت تصرف بأسنانها بغضب ساحق، فقد كان الغضب هو الطريقة الوحيدة التي تمنع بها نفسها من الانفجار في البكاء، لقد اصبحت كل آمالها الحمقاء في المستقبل هباءً منثوراً وذلك بغمزة واحدة من زانا في اتجاهه.

رغم كل الحنان الذي بدر منه الليلة الماضية لم يكن امام تلك المرأة سوى ان تمنحه تلك الابتسامة الرائعة وإذا به ينسى كل شيء آخر... زوجته، مسؤولياته، عهود الزواج...

سارت باتجاه السلم لتصعد إلى غرفتها، ولكنها ما ان سارت عدة خطوات، حتى انحنت وهي تشهق من الألم، نادتها مدبرة المنزل بقلق: «ما بك؟ هل أنت بخير؟»

أجابت بيث وهي تحبس انفاسها: «آه، بأحسن حال.» ثم جلست على السلم. «أظن أن الطفل قادم.»

«لا تخافي، أين زوجك ذاك؟»

«ليس لدي فكرة.» كان الكذب في رأيها افضل من الاعتراف بأنه مازال يكلم حبيبة عمره في منتصف طريق البيت، لقد انتهت هي منه. انتهت. لقد كان الغضب الجامح هو الخلاص الوحيد الذي امامها.

تمتمت مدبرة المنزل وهي تركض صاعدة اليها: «هؤلاء هم دوماً، عندما تحتاجينهم لا تجدينهم، وعندما لا تحتاجينهم يتزاحمون حولك، تعالي.» وأمسكت بها توقفها

على قدميها، «اتصلي هاتفياً بوالدك، وسيأتي ليأخذك إلى المستشفى، وسأحضر انا اليك حقيبتك لا تقلقي.»

لكن الولادة كانت آخر اهتماماتها الآن، اخذت بيث تفكر بذلك ساخرة بمرارة وهي ترفع سماعة الهاتف بينما أسرعت مدبرة المنزل لتحضر حقيبة ملابس الطفل التي كانت بيث قد اعدتها منذ اسبوع. انها تفضل ان يأخذها والدها، انها لا تريد تشارلس ان يقترب منها وإلا فستشتمه وتمزقه إرباً، وهذا يضر بضغط الدم عندها.

أخذت تطلب الأرقام ولكنها ما ان وصلت إلى الرقم الثاني حتى فاجأها ألم آخر أقوى من الأول جعلها تسقط السماعة من يدها.

طبعاً، كان تشارلس هو الذي اخذها إلى المستشفى، كان قد دخل إلى الردهة مع زانا عندما وقعت عيناه على الفور على المشهد الذي أمامه، فتقدم اليها حيث وضع السماعة مكانها، وأخذ الحقيبة من مدبرة المنزل، ثم قادها إلى حيث خرج بها من الباب ومن ثم حملها ووضعها على مقعد سيارته التي كانت واقفة امام المنزل بجانب سيارة زانا الرياضية.

قالت بيث وهو يقفز إلى مقعده ويدير مفتاح الإشعال، قالت له وقد توترت شفتاها: «يمكنك ان تأخذني الآن بنفسك لأن هذا أسرع، ولكنني بعد ذلك لا أريدك ان تقترب مني.» قالت ذلك متحدية نظراته الجانبية اليها، وهي تتابع قائلة: «لا أريد ان ابعدك عن صديقتك فأنا واثقة من ان لديها الكثير الكثير لأجلك اثناء وجودي خارج البيت.»

«ما معنى كل ذلك؟» وتوترت يداه على عجلة القيادة وهو ينطلق بالسيارة بعنف من البوابة إلى الطريق الريفي الضيق،

وكان الوعيد يتجلى في صوته، ولكن بيث ردت عليه ساخطة: «انك تعرف ما أعنيه بكلامي هذا، لقد كنت سمعتكما تتحدثان، هل تذكر؟» وأجفلت ثم تمسكت بحافة مقعدها وهما يصعدان جسراً محدودباً، وأخذت ترتجف ولكنه لم يكن ارتجافاً ناتجاً عن السرعة، لقد كان يسير بسرعة حقاً، ولكنها سرعة منضبطة، فقد كان يعرف هذه الطرقات كما يعرف ظهر يده ولم يكن ليجازف عبثاً، وعندما استعادت انفاسها، قالت بقسوة وعنف: «عندما احضرت اليك ابنك ليراك، في حزيران (يونيو) الماضي، كنت على وشك ان تطلقني لكي تتزوجها، وانا لم أوافق على العودة إليك إلا لأنني كنت حاملاً...»

عاد اليها الألم مجدداً، ولكنها لم تسكت عن الزمجرة اثناءه: «لقد هجرتك مرة أخرى أليس كذلك؟ آه، انني اعرف انها اخبرتك بأنها تعبت من تربية ابنكما وحدها، وان هاري بحاجة إلى والده، ولكنها عادت فهجرتك في النهاية. وكنت أرجو ان تفكر مرتين قبل ان تسمح لها بأن تفعل بك ذلك مرة أخرى، ولكن كلا، آه، كلا.»

ابتسمت بقسوة قائلة: «ففي اللحظة التي برزت فيها مرة أخرى، إذا بك تتهافت عليها فتعانقها و... لقد جعلتني اشعر بالغثيان.»

نظر إليها بحيرة وقد اظلمت عيناه بمشاعر مختلفة، متعددة معقدة، وتساؤلات كثيرة، ولكنها لم تشأ الإجابة عليها، ولماذا تفعل؟ ساءلت نفسها بذلك وهو يحول اهتمامه إلى الطريق، وأدارت رأسها بدورها تنظر من النافذة إلى جانبها.

كانا قد اجتازا القرية، وأصبحا في الطريق الرئيسي ولن يستغرق الوصول إلى المستشفى اكثر من خمس دقائق.

«بيث...»

«لا تحاول ان تتملقني، ولا تظن ان ليس بإمكاني ان أرى ما بنفسك، إذا كنت تريد ان تحتفظ لنفسك بحق الإختيار، فهذا جميل، ولكن لا تهتم بي، فسواء بقيت زانا أم رحلت فالأمر... سيان بالنسبة إليّ لأنني لن أعود اليك، خصوصاً بعد الآن.»

شعرت بغصة في حلقها، واغرورقت عيناها بالدموع فحاولت كبحها بعنف وهي تراه يرمقها بنظرات جانبية متنفساً بخشونة.

ضغطت قدمه لحظة على منظم السرعة وكأنه يفكر في التوقف إلى جانب الطريق، إذ من الأفضل ان يوجه انتباهه كله إلى الجدال الذي كان يدور بينهما، لكن وكأن الألم قد عاودها، فشهقت وهي تغمض عينيها، فعاد يتابع طريقه، وبنوع من الهدوء المر، قال: «سنعود إلى الحديث في هذا الموضوع بعد يوم أو يومين، أما الآن فأرى ان تحتفظي بطاقتك، لأنك تتصرفين بهستيرية بالغة.»

كان الحق معه، فقد كانت بيث شديدة الكدر، وقد أغمضت عينيها، ان كشفها أخيراً عن كل شيء، وفتحها قلبها، واظهارها اشمئزازها البالغ مما بينه وبين زانا، كل ذلك قد صرف ذهنها عن فزعها من ان تلد في الطريق، والآن أثناء هذا الصمت المتوتر، لم تكن واثقة من ان مثل هذا لن يحدث لها.

في الساعات الباكرة من الصباح التالي، كانت تلك اللفافة

الضئيلة الحمراء الوجه توضع بين ذراعيها، وعندما اخذت تلامس بإصبعها برفق الوجنة المخملية. همست تقول: «ان اسمك هو آيدن جون يا حبيبي الغالي.»

«أليس هناك تشارلس كذلك؟» كان تشارلس يقف عند الباب، وفي عينيه نظرة غامضة، وتقدم نحوها ببطء شديد. «دعينا نرى، آيدن لأنك تحبين هذا الاسم، كما اظن. جون لأنه اسم والدك، ولكن لا شيء لأجلي، انا الوالد.»

مع انها كانت قالت له انها لا تريده ان يقترب منها، فقد أصر على البقاء، وفي الحقيقة كانت شاكرة جداً له مساعدته لها وهي تعاني آلام الطلق، وكيف كان يضع الكمادات الباردة على جلدها الحار، لم يفارقها لحظة، وكان معيناً لها تماماً، ومع انها الآن حاولت ان تعلق على كلامه بشيء من الإزدراء، إلا انها لم تجد شيئاً كهذا تقوله.

كانت متعبة تماماً، الآن وبين ذراعيها ابنها البالغ من العمر ساعة واحدة، لم تجد الوقت مناسباً لابتداء خصام آخر، ولكن استسلامها الذي لم تستطع مقاومته، الحنان الذي بدا في ابتسامتها وهي تنقل النظر من ابنها إلى والده، كل ذلك ادهشها وقالت بصوت أبح: «اسمه سيكون تشارلس آيدن جون سافيدج... وسيرعف باسم آيدن تفادياً لأي خلط بين الاسمين.»

«آه، بالطبع.» وكان قد وصل إلى جانب السرير حيث جلس ماسكاً بيد ابنه يفتح اصابعها الضئيلة، وكانت عيناه تتألقان وهو يتمتم قائلاً: «لقد حان الوقت لكي تحصلي على شيء من الراحة يا سيدة سافيدج، انني

مسرور إذ أراك قد تغلبت على ذلك التشوش الذي كان مسيطراً عليك.»

دخلت الممرضة تأخذ الطفل النائم ثم تخفض النور، قائلة: «ارتاحي الآن، يا سيدة سافيدج، وإذا احتجت إلى أي شيء فاضغطي الجرس، اما السيد سافيدج...؟»

انتبهت وقد تملكها الإرهاق إلى ما سيكون جواب تشارلس الذي قال: «اما السيد سافيدج فهو باقٍ إلى ان تنام زوجته.» وشعرت بوجهه الخشن غير الحليق يقرب من وجهها بينما النعاس يأخذها بعيداً، وكان آخر وعيها هو أنه ربما كان على حق في ان تشوش حياتها قد انتهى.

• • •

كان الوقت بعد الظهر، وكانت نظراتها على مجموعة ضخمة من الأزهار لا بد ان تشارلس هو الذي جاء بها... كانت بيث تعلم ان لا شيء قد انتهى بعد، وهذا طبعاً بالنسبة إلى تشوشها إذا كان هذا ما يسمى تصميمها على الانفصال النهائي عنه.

كان قد اتصل هاتفياً قبل الآن بكثير، حيث كانت اسئلته مليئة بالحب، ولكنها ردت عليه باختصار قائلة بأن غرفتها مليئة بالزوار واحاديثهم المرتفعة، وكان هذا صحيحاً باستثناء الأحاديث المرتفعة، وأنها لذلك لا تستطيع ان تسمعه جيداً، وكان هذا غير صحيح لأنها سمعت النبرة اللاذعة في صوته وهو يقول بأنه سيأتي اليها فيما بعد.

كان والداها الآن في طريقهم إلى الخروج آخذين السيدة

بيني مدبرة منزلها معهما لأنها كانت التمست منهما احضارها لرؤية الطفل المولود، كما كانت أليسون قد دخلت لتوها أثناء خروجهم، ورغم ان بيث كانت سترحب بهذه الفرصة التي سنحت للقيام بفترة تفكير، لكي تقرر بالضبط ما ستقوله لتشارلس رغم ذلك استقبلت صديقتها بسرور واضح.

بعد ان القت هذه نظرة على الطفل في مهده، وناغته قليلاً، وضعت ما احضرته من أزهار على المنضدة وهي تقول: «لقد احضرت لك شيئاً قد يعجبك.» ووضعت مغلفاً على ركبتي بيث. «لقد وصل إلى المكتب هذا الصباح، انني عرفت ممن يكون، فافتحيه.»

كانت محتويات المغلف عبارة عن كتاب ويليام تمبليتون الذي كانت قد شاركته العمل به، واحمر وجهها حرجاً وهي تقرأ البطاقة المرفقة به والتي تقول:

«في أي وقت تريدين فيه استعادة عملك. أو تريدين مساعدة، فلا تترددي، فأنا موجود هنا على الدوام.»

المخلص. ويليام.

لم يكن هذا الأمر صواباً منه وإنما لطفاً ورقة، ولكن نتيجته كانت سيئة تماماً وتشارلس يدخل إلى الغرفة وهو يسأل بنعومة مصطنعة وقد ضاقت عيناه: «أترى شخصاً قد أرسل اليك كتاباً؟ مرحباً يا أليسون.» وألقى نظرة ناحية الفتاة الأخرى، لكن للحظة قصيرة لأنه كان يقرأ باهتمام البطاقة التي كان قد اخذها من بين اصابع بيث الواهنة.

ما لبثت عيناه ان اظلمتا وهو يلقي بالبطاقة على السرير ثم خطا إلى مهد الطفل ينظر إليه.

أدركت بيث ما يدور في عقله الملتوي المنحرف فقالت بصوت أبح وقد كاد يتملكها الجنون، قالت دون اعتبار لوجود أليسون: «دع عنك هذه الأفكار، وإذا أنت أتيت على ذكر إجراء فحوصات لإثبات أبوّتك له، فسأقتلك.»

استدار على عقبيه نحوها، ووجهه كحجر الصوان، وقد اسبغت عليه بذلته الداكنة اللون التي كان يرتديها رهبة بالغة، وهو يقول بلهجة قاطعة تنبىء بالوعيد: «لا ضرورة لهذا الكلام. فإن ردة فعلك لا تهامي لك ذاك، هناك في فرنسا، قد اقنعني ولو كانت هناك ذرة من الشك في نفسي، لما جعلتك تتخطين عتبة بابي.»

قالت أليسون باضطراب: «انني... انني ذاهبة.»

لكن أياً منهما لم يسمعها وبيث ترد عليه بحدة: «ان لك طبيعة سريعة الثقة بالآخرين أليس كذلك؟» قالت ذلك دون ان يطرف لها جفن.

قال وقد عقد حاجبيه متوعداً: «هذا ما يبدو، ويسرني أنا أيضاً إذا كان لك مثل هذه الطبيعة، انت أيضاً.»

خطفت وقاحته هذه منها الأنفاس، وفتحت فمها تريد ان تحتج، ولكنه غطى فمها بيده بخشونة وقال لها عابساً يحذرها: «إياك ان تفوهي بكلمة إلا بعد ان اقول ما أريد.» تركها بين الوسائد وقد ضغطت شفتيها ولكنها رفعت ذقنها متحدية. وتقدم من الباب يضع اللوحة المكتوب عليها (الرجاء عدم الإزعاج) ثم ألقى بأزهار اليسون وكتاب ويليام على الأرض، ثم استلقى على الفراش ويداه معقودتان تحت رأسه، متجاهلاً شهقة الغضب التي صدرت عنها.

«لقد كنت احاول ان افهم تصرفاتك منذ أعلنت تلك الفكرة الحمقاء عن التقدم بدعوى انفصال.»

«كان ذلك احد اكثر الأشياء التي قمت بها تعقلاً.» كان بإمكانه ان يأمرها بالصمت، ولكنه لم يستطع ان يسكتها، وتابعت تقول: «ذلك انك بقيت أشهراً لا تقربني، وكأنني امرأة في الثمانين من العمر.» حدقت فيه بجانب عينيها بسخط بالغ، ثم حولت نظراتها إلى السقف وهي تشهق باكية، انها لم تنته منه بعد، فهي لم تكد تبدأ.

«لقد سبق وشرحت لك السبب.» ولأول مرة يبدو شيء من التعب في لهجته وهو يتابع قائلاً: «لو استطعت ان تعرفي مقدار ما كنت اشعر به من الذنب، لما احتجت إلى السؤال عن سبب ذلك.» واعتصرت لهجته قلبها.

لم تعد ترى تصرفاته مهمة، اما تقديم زانا عليها دوماً، فلا بأس، لذا عليها ان تقر بأنه كان صادقاً في ذلك، فقد كان الألم واضحاً في صوته وهو يحدثها كيف كان يلوم نفسه أثناء تلك الشهور الهائلة التي تلت ذلك الحادث، وتعييرها وتعنيفها له لم يكن لهما موجب، ولإصلاح هذا الأمر قالت له بخجل: «وأنى لي ان اعلم هذا ما دمت لم تخبرني أنت؟ كما انني شعرت أنا بنفس الذنب أيضاً، فقد تزوجتني لكي أنجب لك أولاداً... في الدرجة الأولى، على الأقل، فشعرت بأنني خيبت أملك، كانت معرفتي بأنني لن استطيع الإنجاب مرة أخرى جعلتني اشعر بأنني امرأة فاشلة مناسبة لك.»

«كان عليك ان تخبريني بذلك، في الحقيقة انه كان علينا نحن الاثنين، أن نخبر بعضنا البعض، ونتصارح بكل شيء.» وبدت الرقة في عينيه.

ارتجفت بعنف، فهذه المواجهة لن تمر كما كانت تظن... يا ليتهما فقط كانا أفضيا إلى بعضهما البعض بما يساورهما من شعور بالذنب حبساه في اعماقهما.

لكن هذا كله أصبح من الماضي ولا يمكنهما العودة إليه، وقد جعل ذلك واضحاً وهو يستند إلى مرفقه ونظره الذي لا يمكن لها تجنبه في وجهها وهو يقول لها بهدوء وصبر: «كما كنت أحاول ان أفسر لك الأمر، لم استطع ان افهم سبب تصرفك ذاك نحوي، إلى ان انفجرت بي بتلك الحالة الهستيرية ونحن في طريقنا إلى هنا.»

أشاحت بوجهها وهي تقول غاضبة: «هستيرية؟ لا شأن لهذا بما كنت اقوله، كانت الهستيريا ستصيبك أنت أيضاً لو كنت مثلي، خائفاً من ان تلد في السيارة.»

«يمكنك ان تقولي اكثر من ذلك، وهو ان شكوكاً قوية كانت تتملكني حول مبلغ أهميتي في الحياة.»

لوت شفتيها دون وعي منها، لكنها ما لبثت ان تذكرت ان هجر المرأة لزوجها كان شيئاً خطيراً تماماً، ومخيفاً أيضاً. تنهدت شاعرة ببرودة الوحدة رغم طفلها الراقد في مهده بسلام.

قال لها تشارلس: «فقط عندما أخذت تثرثرين بذلك الكلام الفارغ عن كون هاري هو إبني، عند ذلك اخذت أجمع الحقائق معاً، اخبريني عما سمعته بالضبط في ذاك اليوم.»

كلام فارغ؟ خفق قلب بيث بعنف، ثم سكن لقد سمعت ما سمعت، ليس بإمكانه ان يراوغ بهذا الأمر، وكيف يمكنه ذلك؟

قالت له بلهجة الاتهام: «لقد قالت لك يا حبيبي.»

«هل هذا كل شيء؟ انها تنادي كل شخص يا حبيبي.» ثم

أدار لها ظهره مرة أخرى وأغمض عينيه وكأنه سئم من هذا كله.

ولكن بيث قالت بحدة: «كلا، ليس هذا كل شيء... وأنت تعلم ذلك.»

تصاعد صوت ضئيل كالمواء، فنزلت بيث من السرير إلى حيث رفعت الطفل من المهد ثم عادت، بينما تمتم تشارلس يقول: «حسناً، تابعي كلامك إذن.»

«لا اظن ان هذا هو الوقت والمكان المناسبين للتحدث عن انهيار زواجنا.» لم تكن بيث تريد ان تحزن نفسها حالياً، ربما فيما بعد، أو غداً ولكن ليس الآن.

استدار تشارلس إليها مرة أخرى، وعيناه على الطفل الذي كان بين ذراعي والدته، ثم قال بصوت ثقيل: «ما هذا؟ اظنني غيوراً من ابني.» ثم تابع وهو يرى احمرار وجنتيها: «عندما استلمت ذلك العمل في فرنسا، وأخبرتني انك تريدين الإنفصال، كدت أخرج عن عقلي، لقد كانت أمورنا سيئة... فقد كنت أعرف مبلغ لهفتك إلى الأطفال. وأظن بوجه عام، ان رغبتك تلك كانت السبب في قبولك الزواج مني.»

«ولكنك انت أيضاً قلت انك تريد أطفالاً، تريد أعداداً منهم لكي تملأ بهم بيتك الواسع.»

قالت ذلك تذكره بلهجة الدفاع، فرفع يده يسكتها: «ذلك فقط لأنني كنت اعرف مدى لهفتك إلى ذلك، كنت أريدك انت، انت فقط، فإذا اعطيتني أولاداً فهذا عظيم، أما إذا لم تتمكني من ذلك، فما كان هذا ليحزنني، صدقيني وقد اعتقدت ان رؤيتك لهاري في منزلنا هو الذي اساء اليك إلى هذا الحد، وهذا ما جعلك تهربين، لقد كنت اشعر بأنني مسؤول عن

خسارتك لطفلك، ولما كنا نظنه من خسارتك لكل أمل آخر في الإنجاب بعد ذلك، لقد حاولت ان اجعلك تعتقدين انه سيكون لك آخرون، وذلك لأعزيك ولأخفف من عذاب ضميري، لم يكن باستطاعتي ان ألمسك، فابتعدت عنك إذ شعرت بأنك بحاجة إلى وقت تتعودين فيه على ما حدث.»

كانت تفكر في ما قاله عن انه كان يريدها، ويريدها هي فقط، هذه الكلمات كان لها فعل البلسم في ذهنها، وكيف أنه قال لها سيكون لديها أولاد آخرون فظنت في ذلك الحين، انه يعني رجل من آخر، ولكن كلامه عن التأثير الذي كان لابنه هاري عليها، قد أخرجها من هذا الفردوس الوهمي الذي وضعها فيه. لقد آلمها وجود هاري بالطبع، وجعلها تشعر بالمرارة والغيرة.

قالت له بحدة وقد عاد إليها الشعور بالألم والوحدة والخسارة: «لقد تألمت لأن هاري كان... أعني لأنه إبنك، فقد كنت سمعت زانا تقول عنه ابننا وأنه كان عليها أن تعود إليك مرة أخرى لأن الطفل يجب ان يعرف والده. اخبرتك بأن زواجنا قد انتهى، وما كان ثمة من يخبرها بذلك سواك وذلك لغرض في نفسك، وقد رأيتكما معاً في تلك الليلة، في غرفة الطفل، كما أن مدبرة المنزل قالت إن هاري هو صورة أخرى منك، وكان هذا صحيحاً، ثم...»

قاطعها تشارلس وهو يرفع يده يمسح برفق دموعاً لم تستطع ان تمنع تدفقها من بين اجفانها المغمضة، قاطعها قائلاً: «ان مدبرة المنزل تعلم دوماً اكثر مما يجب ان تعلم، لا تحزني يا حبيبتي، صدقيني ان لا حاجة بك لهذا، لأنك تحبينني، أليس كذلك؟»

جعلتها نبرة الظفر العميقة في صوته، ترتجف، فأومأت إيجاباً وقد منعتها مشاعرها من النطق، أو حتى محاولة إنقاذ كرامتها التي أصبحت بغاية الأهمية بالنسبة اليها.

أخذ الطفل النائم من بين ذراعيها، وأعاده إلى مهده، ثم جلس إلى جانبها وهو يقول لها بصوت مثخن بالمشاعر: «لقد فكرت في كل هذا أثناء سهري عليك عندما كنت تعانين، وبكل شجاعة، من آلام انجاب طفلنا ووريثنا، ومما قد قلته لي الآن، أدركت انك لا يمكن ان تكوني سمعت كل الحديث وإلا لعرفت ان هاري هو ابن شقيقي جايمس وليس إبني، لقد تركت انت المنزل لأنك ظننت ان زانا قد عادت إليّ، محضرة ابننا، وإنني سأخرجك من بيتي.»

«ابن جايمس؟» هتفت بيث بذلك غير مصدقة. «ولكن كان لها علاقة بك انت... كل شخص كان يعلم انها كانت هاجسك الأول.»

مال برأسه إليها باسماً وهو يهمس: «لم يكن لي علاقة ابداً مع زانا، أما كونها كانت هاجسي فهذا صحيح وإنما بطريقة مختلفة، لقد كان هاجسي هو إبعادها عن طريق شقيقي جايمس.»

تصاعد طرق على باب الغرفة تبعه دخول ممرضة، متجاهلة لوحة (الرجاء عدم الإزعاج) والتي كانت لأجل الزائرين فقط.

ثم سألت باختصار: «هل تناول الطفل الحليب، يا سيدة سافيدج؟» وإذ أومأت هذه إيجاباً تابعت تقول: «إذن فقد

حان وقت تغيير الحفاظ له، أليس كذلك؟ ليس عليك إلا ان تضغطي ذلك الجرس.»

هزت بيث رأسها دون ان تفهم شيئاً، وهي تنظر إلى الممرضة تخرج من الغرفة، هل تتهمها هذه بأنها والدة مهملة؟ ربما كانت ظنت ذلك، ولكنها بدلاً من إظهار سخطها، بدت على فمها ابتسامة رقيقة، فهي تحب ابنها الضئيل الحجم هذا اكثر من حياتها، ولكنها تحب والده اكثر، لقد ابتدأت الأمور تتضح بشكل معقول... أو البعض منها.

هل كان كل شخص مخطئاً بالنسبة إلى علاقته مع حمراء الشعر تلك؟

قالت آمرة وهي تبتعد عنه: «أوضح لي كل شيء.»

لمعت عيناه ضاحكاً: «هذا ضروري أليس كذلك؟ ولكن كل ما استطعت ان أفهمه حقاً هو انك بعد كل ما حدث، ما زالت تحبينني.» وسكت لحظة ثم تابع يقول: «منذ سنوات كثيرة وأسرتنا تعرف آل هول، فقد كان والد زانا ووالدي في نفس المدرسة معاً، وكانت هي دوماً فتاة جريئة... جميلة، وتنال كل ما تريده، ولكنها كانت غير منضبطة كلياً، وقد وجدتها مزعجة اكثر مما وجدتها جميلة، ثم منذ حوالي الخمس سنوات جاءت لتقيم معنا، فقد تملك والديها الإشمئزاز من سلوكها، وطريقة حياتها، إذ كان هنالك دوماً رجال محطمو القلوب يتعاقبون على عتبة منزلهم، ولكن الذي لم يكونا يعرفانه هو أن جايمس كان هائماً بها سراً، منذ سنوات، ولكنني انا كنت أعلم ذلك، وربما تجاوزت الحدود في محاولة حمايته منها، ولكنني لم أشأ ان أراه يلاقي نفس مصير الآخرين، وهكذا أخذت على عاتقي أن

أرافق تلك المرأة إلى كل مكان، وذلك لكي أجعل جايمس يظن انني حبيبها الدائم، ولسوء الحظ... اعتقد الجميع ذلك، هم أيضاً وكان هذا اكبر خطأ إرتكبته في حياتي، فقد سبب صدعاً بيني وبين شقيقي لم يلتئم إلا حديثاً، في ذلك الحين كنت أعتقد بأنني أقوم بالأمر الصواب، خصوصاً وأن جايمس، والذي كان ذهب ليعمل في مشروع في فرنسا، قد تزوج ليزا، وكانت زانا ماتزال تحوم حولنا. لقد نفعتنا، والحق يقال في بعض الأمور فقد كانت تقوم باستقبال ضيوفي عندما احتاجها... وبين تنقلاتها السريعة هنا وهناك، كانت تقوم بأعمالها الخاصة. وجاء الوقت العصيب حين أخبرتني بأنها ذهبت لزيارة جايمس وليزا... حتى ان الوقاحة بلغت بها حد إخباري بأنها وقعت في حبه، ولا حاجة للقول انني طردتها من منزلي، واخبرتها بأن لا تدوس عتبة بيتي مرة أخرى. وأظن أن القرية بأجمعها اعتقدت العكس، وأنها هي التي هجرتني وفجأة أصبح كل شخص متعاطفاً معي.»

انفجرت تقول بحرارة: «يا لها من امرأة كريهة.»

فقال لاوياً شفتيه: «انها كذلك ولكنني اظنها تغيرت، ستبقى دوماً عنيدة أنانية تحب الأضواء، ولكنها والدة جيدة، وهذا ما أدهشني، هي وجايمس يتبادلان الحب، وإذا استطاع ان يصبر على طباعها تلك، فسيكونان على ما يرام.»

«إذن فجايمس في الحقيقة هو والد هاري.»

همست بذلك وهي لا تكاد تصدق ان الأمور أخيراً قد ابتدأت تأخذ مواقعها الحقيقية. «أما انت فقد ظننتني أعرف

هذا كله، ولم تشأ ان تحدثني به عندما دعوتني، انت وهي لذلك، وهكذا تركت أنا المنزل، ولا بد انكما قد اعتقدتما بأنني اكبر حمقاء في العالم.»

ابتسم وهو ينظر في عينيها المنزعجتين وهو يقول: «هذا غير صحيح مطلقاً، يا حبيبتي، لقد اعتقدت انك كنت منزعجة، ومجروحة الإحساس... وان رؤيتك لهاري قد أعاد إلى ذهنك كل ما فقدته. وعندما رحلت كنت مصمماً على استعادتك، فانا أعرف ان حياتي لا تستحق شيئاً من دونك.»

«وماذا كنت تفعل معها إذن في فرنسا؟»

فهز رأسه قائلاً: «صبراً، يا امرأة، فانا سأخبرك، كنا ذاهبين للبحث عن جايمس، ولكن أول علمي بوجود هاري كان عندما عادت زانا إلى بيتنا ساوث بارك معه في ذلك اليوم، كانت تحاول ان تستعيد شخصيتها القديمة المشرقة الباسمة، ولكن القلق كان يتملكها في داخلها. لقد اخبرتني أن هاري هو ابن شقيقي، وعندما علمت بأن ليزا كانت قد توفيت، أرادت أن تتصل به ولكنها لم تكن تعرف مكانه، كان لهاري الحق في ان يعرف والده، وجايمس الآن وقد أصبح حراً، قد يكون مايزال يحبها إلى حد يرغب فيه بالزواج منها، فهي مازالت تحبه كما تقول، هذا وبصراحة، لا استطيع تصديقه حيث انني اعرف سجل حياتها، وعلى كل حال... لم يكن هناك شك في أن هاري هو إبن جايمس فشبهه بالأسرة كان قوياً، وهكذا وعدتها بأن أقوم بما استطيعه في هذا الشأن. وكنت أعرف أنه مازال يعمل في نفس الشركة، بصفته مهندساً مدنياً، في فرنسا واستطعت

اقتفاء أثره إلى مدينة صغيرة في الجنوب، ولكن كان علي أولاً ان أعثر عليك، وكما تعلمين، عرفت مقر عملك من أليسون فاتصلت بجايمس أخبره بوصولنا... وعندما... ذهبت إليك في بولوني، إنزعجت زانا جداً لأنها كرهت ان تتأخر عن موعدها مع جايمس، وعندما وجدتك كانت نيتي أن اتحدث عن كل شيء معك، وأطلب منك العودة معي، ولكن الأمر خرج من يدي وانتهى النهار الذي كنت أريد ان اقنعك فيه، ولكنني كنت قد عرفت مكانك، وانك باقية هناك مع ويليام ذاك، وما بين المساعدة في تصريف الأمور بين جايمس وزانا، وإنهاء بعض الأعمال التي تخصني، وذلك لكي يكون لدي وقت كاف أمضيه معك، استأجرت ذلك الكوخ وملأته بالمونة، ما جعل أسابيع تمر قبل ان اتمكن من الحضور إليك مرة أخرى، إذ كنت اعلم بأنه سيكون لدي ما يكفي من الوقت لكي أقنعك بوجهة نظري.»

«وما هي وجهة نظرك هذه؟» اندفعت بيث بهذا السؤال وقد نبذت في النهاية تعاسة السنة الماضية من ذهنها، مدركة أن الحاضر والمستقبل مع هذا الرجل هو الشيء الوحيد الذي يهمها.

أجابها هو بقوله: «ان اعلمك كيف تحبينني، لقد أحببتك، تقريباً في اللحظة التي دخلت فيها منزلي بصفة مدبرة منزلي المؤقتة، قد رأيتك دافئة المشاعر، طبيعية مليئة بالمحبة، وعندما وافقت على الزواج مني لم استطع تصديق حظي الحسن.»

فقالت بلهجة الإتهام: «ولكنك لم تخبرني بأنك تحبني.» لكن لهجتها في ذلك كانت رقيقة وهي تتذكر كيف كانت

تتشوق لسماع هذه الكلمة منه، ولكن كل هذا لم يعد مهماً الآن بعد ان عرفت الحقيقة.

جعلتها الدهشة التي بدت في عينيه ترغب في أن تهزه لهذا الطبع الغريب، لكنها ابتسمت له وهو يقول: «لقد أريتك حبي لك، أليس كذلك؟ كنت اريك في كل لحظة مبلغ حبي لك، وعندما أعيدك إلى البيت سترين اكثر واكثر... ولكن قبل ان تسأليني، لقد عادت زانا وهاري إلى انكلترا لكي يقابلا والدي ليزا، زوجة جايمس السابقة، ويخبرانهما بنبأ الزواج، فقد رأى جايمس ان من الفطنة القيام بذلك مع هاري أولاً، وذلك لكسر الجليد حيث يوجد، وقد جاءت زانا إلى بيتنا ساوت بارك لكي تبيت الليلة، وهي الآن في طريقها إلى شمال البلاد لكي تنضم إلى الآخرين.»

فتمتمت بيث بصوت أجش: «دعنا من زانا.» وإذ اقتربت منه اكثر، إذا بالممرضة تدخل من الباب معلنة: «اعتقد ان الطفل بحاجة إلى الرضاعة الآن. فقد غسلنا جسده وغيرنا ثيابه، و...»

نهض تشارلس واقفاً وهو يقول: «شكراً.» وأخذ منها ابنه البادي التذمر، مشيراً للممرضة بالخروج، وهو يحمله بين ذراعيه.

جذب بيث لكي تقف واضعاً ذراعه الأخرى حولها يسندها، ثم تمتم يقول بصوت مليء بالمشاعر: «ايمكنك ان تشعري يا بيث، بالحب الذي حولنا؟ اقسم على ان لدينا منه هنا، في هذه الغرفة، ما يكفي لكي يجعل العالم يستمر في الدوران لمدة ألف عام.»

نظرت في أعماق هاتين العينين النفاذتين ورأت الحب،

فتعهدت صامتة، بأن تحبه حتى نهاية حياتها. وفهم هو هذا... لقد قرأ الرسالة التي كانت أعمق من أن تحملها الكلمات، وتناولت هي الطفل منه تحمله وهي تمد يدها الأخرى إلى زوجها، إلى تشارلس حبيبها الرائع الخشن العطوف والذي يثير السخط.

كانت ابتسامتها رائعة مشرقة.

تمت

www.elromancia.com
مرمونية